الخلاصةُ في فقهِ القلوبِ

(طبع بموافقة وزارة الإعلام تاريخ19/11/2007 رقم (97070)

إعداد
الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإنه كما للبدن فقه فكذلك للقلوب فقه ولكنه من نوع آخر ، ولبيان أهمية ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَلاَ وَإِنَّ فِى الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ . أَلاَ وَهِىَ الْقَلْبُ »أخرجه البخاري برقم(52) .

وقد كتب في هذا الموضوع الكثير ، وهذه خلاصته ، وقد قسمته للموضوعات التالية :

خلق القلب 2- منزلة القلب 3- صلاح القلب 4- حياة القلب 5- فتوحات القلب1 **6-**

6- أقسام القلوب 7- غذاء القلوب 8- فقه أعمال القلوب 9- صفات القلب السليم 10- فقه سكينة القلب 11- فقه طمأنينة القلب 12- فقه سرور القلب 13- فقه خشوع القلب 14- فقه حياء القلب 15- أسباب مرض القلب والبدن 16- مفسدات القلب 17- مداخل الشيطان إلى القلب 18- علامات مرض القلب وصحته 19- فقه أمراض القلوب وعلاجها 20- أدوية أمراض القلوب

وقد قمت بعزو الآيات لمكانها من كتاب الله تعالى ، وقمت بتخريج الأحاديث والحكم عليها إذا لم تكن في الصحيحين أو أحدهما وغالبها يدور بين الصحة والحسن

لذا أرجو من المولى سبحانه وتعالى أن يكون كتابنا (هذا) بابا لإصلاح القلوب وصقلها

قال تعالى : {الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} (28) سورة الرعد

جمع وإعداد

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

حمص في 27 شوال 1428 هـ الموافق لـ 7/11/2007 م

خلقُ القلب1 -

قــال الله تعــالى: (وَاللَّهُ أَخْــرَجَكُمْ مِنْ بُطُــونِ أُمَّهَــاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَـيْئًا وَجَعَـلَ لَكُمُ السَّـمْعَ وَالْأَبْصَـارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (78) [النحل: 78].

وقـــال الله تعــالى: (أَفَلَمْ يَسِــيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُــونَ لَهُمْ قُلُــــوبٌ يَعْقِلُـــونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْـــمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46)) [الحج: 46].

الله تبــارك وتعــالى خلق الإنســان، والإنســان له ظــاهر وبــاطن، وفي باطنه أكـثر الأعضـاء وأهمها كـالقلب والكبد والمعدة.

ولفظ القلب يطلق على معنيين[1]:

أحـدهما: اللحم الصـنوبري الشـكل، المـودع في الجـانب الأيسر من الصدر، وهو لحم مخصوص وفي باطنه تجويـف، وفي ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه، يــدخل فيه الدم، ثم يدفعه بواسطة العروق لتغذية البدن.

الثاني: لطيفة ربانية روحانية، لها بـذلك القلب الجسـماني تعلـــق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنســـان، وهو المـــدرك العالم العارف من الإنسان.

وهو المخــاطب والمطــالب، والمثــاب والمعــاقب، ولهــذه اللطيفة علاقة مع القلب الجسماني.

أما الـــــــــروح: فهو جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني، ينتشر بواسطة العروق إلى سائر أجزاء البدن.

وجريانه في البدن، وفيضان أنوار الحيـاة والحس، والسـمع والبصر والشم منها على أعضائها، يضاهي فيضان النور من السراج الذي يدار في زوايا البيت.

وسـريان الـروح، وحركته في بـاطن الإنسـان، يشـبه حركة السراج في جوانب البيت بتحريك محركه.

---

[1] - إحياء علوم الدين - (ج 2 / ص 206) وكتاب الكليات ـ لأبى البقاء الكفومى - (ج 1 / ص 738)

أما النفس [2]: فتطلق على ذات الإنســـان، وهي اللطيفة التي هي نفس الإنسان وذاته، وتطلق على المعنى الجــامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان.
أما العقل[3]: فهو ما يعقل الإنسان عما يشينه ويدنسه من الأقوال والأفعال وضده الجنون.
فيطلق ويـراد به العلم بحقـائق الأمـور، فيكـون عبـارة عن صفة العلم الذي محله القلب.
ويطلق ويـراد به تلك اللطيفة المـدرك للعلـوم فيكـون هو القلب.
ولما خلق الله عزَّ وجلَّ الإنسان ابتلاه وامتحنــه، بما يعـرف به صدقه وكذبه، وطاعته ومعصيته وطيبه وخبثه.
فمــزج في خلقته وتركيبه أربع شــوائب، فلــذلك اجتمع عليه أربعة أنواع من الأوصاف وهي:
الصفات السبعية.. والبهيمية.. والشيطانية.. والربانية..[4]
وكل ذلك مجموع في قلبه.
فهو من حيث سـلط عليه الغضب يتعـاطى أفعـال السـباع، من العـــداوة والبغضـــاء، والتهجم على النـــاس بالشـــتم والضرب والقتل.
وهو من حيث سلطت عليه الشهوة يتعاطى أفعال البهـائم، من الشره والحرص والنكاح والشبق وغير ذلك.
وهو من حيث اختصاصه عن البهائم بـالتمييز، مع مشـاركته لها في الغضب والشــهوة، حصــلت فيه شــيطانية، فصــار شريراً يستعمل التمييز في استنباط وجوه الشــر، ويتوصل إلى الأغــراض بــالمكر والخــداع، ويظهر الشر في معــرض الخير، وهذه أخلاق الشياطين.
ومن حيث أنه في نفسه أمر ربـــاني، فإنه يـــدعي لنفسه الربوبية، ويحب الاستيلاء والاسـتعلاء في كل شــيء، ويحب الاستبداد في الأمور كلها، والتفرد بالرياسة، والانسـلال عن

---

[2] - إحياء علوم الدين - (ج 2 / ص 207)
[3] - لقاءات الباب المفتوح - (ج 24 / ص 2) وفتاوى الإسلام سؤال وجواب - (ج 1 / ص 4228) ومجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين - (ج 7 / ص 228)
[4] - إحياء علوم الدين - (ج 2 / ص 213)

ربقة العبودية والتواضع.
ويدعي لنفسه العلم والمعرفة والإحاطة بحقائق الأمور.
والإحاطة بجميع الحقـــائق، والاســـتيلاء بـــالقهر على جميع الخلائق من أوصـاف الربوبيـة، وفي الإنسـان حـرص على ذلك.
وكل إنسان فيه شوب من هذه الأوصاف الأربعة.
فمعرفة القلب، وحقيقة أوصـــافه أصل الـــدين، وأســـاس طريق السالكين: (وَمَنْ لَمْ يَجْعَـلِ اللَّهُ لَـهُ نُـورًا فَمَا لَـهُ مِنْ نُورٍ (40)) [النور: 40].
والقلب يغرق فيما يستولي عليه من محبـوب أو مكـروه أو مخوف.
فالمحبوب يطلبه، والمكروه يدفعه.. والخوف يحذره.
والرجاء يتعلق بالمحبوب.. والخوف يتعلق بالمكروه.
ولا يـــأتي بالحســـنات والمحبوبـــات إلاّ اللـــه، ولا يـــذهب بالســـيئات والمكروهـــات إلاّ الله ، والله أعلم حيث يجعل رسالته، قال تعالى : (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْـلِهِ يُصِـيبُ بِـهِ مَنْ يَشَـاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (107)) [يونس: 107].

2- **منزلة القلب**[5]

قال الله تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (37)) [ق: 37].
وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلاَ وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ، أَلاَ وَإِنَّ فِى الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ،وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلاَ وَهِىَ الْقَلْبُ » **متفق عليه**[6].
الله تبارك وتعالى فضَّل الإنسان، وشرفه على كثير من خلقه، باستعداده لمعرفة الله سبحانه، التي هي في الدنيا جماله وكماله، وفخره وسعادته وأنسه، وفي الآخرة عدته وذخره.
وإنما استعد للمعرفة بقلبه، لا بجارحة من جوارحه، فالقلب هو العالم بالله، وهو المتقرب إلى الله، وهو العامل لله، وهو الساعي إلى الله، وهو العالم بما عند الله، وإنما الجوارح أتباع له وخدم وآلات.
يستخدمها القلب ويستعملها استعمال المالك للعبد، واستخدام الراعي للرعية، واستخدام الإنسان للآلة.
فالقلب هو المقبول عند الله، إذا سلم من غير الله، وهو المحجوب عن الله، إذا صار مستغرقاً بغير الله.
وهو الذي يسعد بالقرب من الله، فيفلح إذا زكاه، وهو الذي يخيب ويشقى إذا دنسه ودساه.
وهو المطيع في الحقيقة لله تعالى، وإنما الذي ينتشر على الجوارح من العبادات والأخلاق أنواره وآثاره.
وبحسب ما فيه من النور والظلام، تظهر محاسن الظاهر ومساويه، إذ كل إناء بما فيه ينضح، والقلوب كالقدور تغلي بما فيها.
وصلاح العالم وفساده يكون بحسب حركة الإنسان في الحياة، إذ هو قلب العالم ولبه، وصلاح بدن الإنسان

---

[5] - موسوعة خطب المنبر - (ج 1 / ص 5066) وموسوعة فقه القلوب - (ج 2 / ص 500) و إحياء علوم الدين - (ج 2 / ص 205)
[6] (?)أخرجه البخاري برقم (52)، ومسلم برقم (4178).

وفساده قائم على صلاح القلب وفساده كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث السابق .
والقلب هو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه، وإذا عرف نفسه عرف ربَّه،[7] وهو الذي إذا جهله الإنسان فقد جهل نفسه، ومن جهل نفسه فقد جهل ربَّه، ومن عرف ربه فقد عرف كل شيء، ومن جهل ربه فقد جهل كل شيء.
ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل، وأكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم وربهم، وقد حيل بينهم وبين أنفسهم، فإن الله يحول بين المرء وقلبه كما قال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24)) [الأنفال: 24].
وحيلولته: بأن يمنعه سبحانه عن مشاهدته ومراقبته، ومعرفة أسمائه وصفاته.
وكيفية تقلبه بين إصبعين من أصابع الرحمن،[8] أنه كيف يهوي مرة إلى أسفل سافلين، وينخفض إلى رتبة الشياطين، وكيف يرتفع أخرى إلى أعلى عليين، ويرتقي إلى عالم الملائكة المقربين.
وحاجة القلب إلى معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله أعظم من حاجة البدن إلى الطعام والشراب.
بل نسبة حاجات القلب إلى الإيمان، ومعرفة الله عزَّ وجلَّ،

---

[7] - انظر مجموع الفتاوى - (ج 9 / ص 295)والحاوي للفتاوي للسيوطي - (ج 3 / ص 357) وإيقاظ الهمم شرح متن الحكم - (ج 1 / ص 2) و إحياء علوم الدين - (ج 3 / ص 431) والفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي - (ج 1 / ص 677)

ومعناه : من عرف نفسه بالعجز والافتقار والتقصير والذلة والانكسار عرف ربه بصفات الجلالة والجمالة على ما ينبغي لهما ، فأدام مراقبته حتى يفتح له باب مشاهدته فيكون من أخصائه الذين أفرغ عليهم سجال معرفته وألبسهم صوافي خلافته ؟ .

[8] - عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يَقُولُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ : « إِنَّ قُلُوبَ بَنِى آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ ». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ ». صحيح مسلم برقم (6921)

وحاجات البدن للطعام والشـراب كالـذرة بالنسـبة للجبـل، والقطرة بالنسبة للبحر.
وقد خلق الله عزَّ وجـلَّ في كل إنسـان ثلاث أوانٍ أساسية وهي:
الدماغ... والقلب.. والمعدة.
فالدماغ آنية العقل والعلم.. والقلب آنية الإيمان والتوحيـد.. والمعـدة آنية الطعـام والشـراب.. فلكل آنية غـذاء.. ولك غذاء ثمرة.
فـالقلب محل الإيمـان والتصـديق، واليقين والتعظيم لـرب العالمين، والخوف منه، والتوكل عليـه، ومحبته والأنس بـه، ومعرفته، والانقياد له، والتسليم له سبحانه.
ولذا صـار القلب محل نظر الله من العبـد، كما قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم : « إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُـرُ إِلَى صُـوَرِكُمْ وَأَمْـوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُـرُ إِلَى قُلُـوبِكُمْ وَأَعْمَـالِكُمْ ». **أخرجه مسلم**[9].
وأصل العلم الذي يـورث العمـل.. ويـوجب خشـوع القلب.. وخشـيته لربـه.. ومحبته لـه.. والقـرب منـه.. والأنس بـه.. والإقبال عليه.. ولزوم طاعته.. هو العلم بالله.. وهو معرفة أسمائه وصفاته.. وآلائه ونعمه.. وصفات جلاله وجماله.. ثم معرفة وعده ووعيده.. ومـاذا أعد الله من النعيم للمتقين.. وماذا أعد من العذاب للمجرمين.
ثم يتلوه العلم بأحكام الله.. وما يحبه ويرضاه من العبد من قول أو عمل أو حال أو اعتقاد.. ويستقيم على ذلك إلى أن يموت.
ومن فاته هذا العلم النافع، وقع في الأربع التي استعاذ منها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: « اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ وَمِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ وَمِنْ دَعْوَةٍ لاَ يُسْتَجَابُ لَهَا » **أخرجه مسلم**[10].
والله تبارك وتعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم[11].. خلق

---

[9](?) أخرجه مسلم برقم (6707 و6708).
[10](?) أخرجه مسلم برقم (7081).
[11] - قال تعالى : {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} (4) سورة التين.

القلب للإنســـان يعلم به الأشـــياء.. وخلق العين يـــرى بها الأشــياء.. وخلق الأذن يســمع بها الأصــوات.. وخلق العقل يعقل به الأشياء..

كما خلق ســبحانه كل عضو من أعضــائه لأمر من الأمــور وعمل من الأعمـــــال فاليد للبطش، والرجل للســـــعي، واللسان للنطق، والفم للأكل، والأنف للشم، وكـذلك سـائر الأعضاء الظاهرة والباطنة، لكل وظيفة وحكمة.

فـإذا اسـتعمل الإنسـان العضو فيما خلق لـه، وأعـدَّ لأجله فـذلك هو الحـق، وكـان ذلك خـيراً وصـلاحاً لـذلك العضو ولربه، وللشيء الذي استعمل فيه.

وإذا لم يسـتعمل العضو في حقـه، بل تـرك بطـالاً، فـذلك خسران، وصاحبه مغبـون، وإن اسـتعمل في خلاف ما خلق له فهو الضلال والهلاك، وصاحبه من الذين بــدلوا نعمة الله كفراً[12].

وســيد الأعضــاء، ورأســها وملكها هو القلب، والفكر للقلب كالإصغاء للأذن.

وصلاح القلب وحقه والـذي خلق من أجلـه، هو أن يعقل الأشياء:

فيعرف ربه ومعبوده وفـاطره.. وما ينفعه وما يضــره.. وما يصــلحه وما يفســده.. ويعــرف أســباب النجــاة وأســباب الهلاك.. ويميز بين هذا وهذا.. ويختار ما ينفعه وما يصلحه.. ويعتصم بالله.. ولا يلتفت إلى ما سواه.

والنــاس متفــاوتون في الخلــق.. ومتفــاوتون في عقلهم الأشــــياء.. من بين كامل ونـــاقص، وفيما يعقلونه من بين قليل وكثير.. وجيد ورديء.

وإذا آمن العبد بالله أكرم الله قلبه بعشر كرامات:

الأولى: **الحياة**:

كما قال سبحانه: (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُـورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُـهُ فِي الظُّلُمَـاتِ لَيْسَ بِخَـارِجٍ مِنْهَا كَـذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـافِرِينَ مَا كَـانُوا يَعْمَلُـونَ (122)) .

[12] - قال تعالى : {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ} (28) سورة إبراهيم

[الأنعام: 122].
و« مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِىَ لَهُ .. »[13]. ، وكذلك الله عزَّ وجلَّ خلق القلب، وجعل فيه نور الإيمان، فلا يجوز أن يكون لغيره فيه نصيب.

الثانية: الشفاء:

كما قال سبحانه: (وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (14) [التوبة: 14].

فالعسل شفاء الأبدان.. والإيمان شفاء القلوب.. والعلم شفاء من الجهل.

الثالثة: الطهارة:

فالصائغ إذا امتحن الذهب مرة لا يدخله النار، وكذلك الله إذا امتحن قلوب المؤمنين لا يدخلهم النار: (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (3)) [الحجرات: 3].

الرابعة: الهداية:

كما قال سبحانه: (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (11)) [التغابن: 11].

الخامسة: ثبوت الإيمان:

فكما أن الورقة إذا كتب فيها قرآن لم يجز إحراقها، فكذلك قلب المؤمن إذا كتب فيه الإيمان لم يجز إحراقه: (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آَبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (22)) [المجادلة: 22].

السادسة: السكينة:

كما قال سبحانه: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4)) [الفتح: 4].

السابعة: الألفة:

---

[13] - سنن أبى داود برقم (3075) وهو صحيح

كما قال سبحانه: (وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (63)) [الأنفال: 63].

الثامنة: الطمأنينة:

كما قال سبحانه: (الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28)) [الرعد: 28].

التاسعة: المحبة:

كما قال سبحانه: (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7)) [الحجرات: 7].

العاشرة: الزينة والحفظ من السوء:

كما قال سبحانه: (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7)) [الحجرات: 7].

3- صلاح القلب [14]

قال الله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2)) [الأنفال: 2].

وقال الله تعالى: (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (11)) [التغابن: 11].

أصل كل خير وسعادة للعبد كمال حياته وكمال نوره، فالحياة والنور مادة الخير كله في الدنيا والآخرة.

فبالحياة تكون قوته وسمعه وبصره، وحياؤه وعفته، وشجاعته وصبره، وسائر أخلاقه الفاضلة، ومحبته للحسن، وبغضه للقبيح.

وكلما قويت حياته، قويت فيه هذه الصفات، وإذا ضعفت حياته، ضعفت فيه هذه الصفات.

وحياؤه من القبائح هو بحسب حياته في نفسه، فالقلب الحي إذا عرضت عليه القبائح نفر منها بطبعه، وأبغضها ولم يلتفت إليها، بخلاف القلب الميت فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح، وكذلك القلب المريض بالشهوة، فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك فيعطب.

وكذلك إذا قوي نور القلب وإشراقه انكشفت له صور المعلومات وحقائقها على ما هي عليه.

فاستبان حسن الحسن بنوره وآثره بحياته، وكذلك قبح القبيح.

والقرآن نور تستضيء به القلوب وتشرق به، وروح تحيا به القلوب، فالمؤمن حي أكرمه الله بالنور الذي يبصر به الحق من الباطل.

والكافر ميت القلب، مغمور في ظلمة الجهل، والكافر لانصرافه عن طاعة الله، وجهله بمعرفته وتوحيده، وشرائعه وسننه، وترك العمل بما يؤد به إلى نجاته

---

[14] - فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج 3 / ص 919)وموسوعة خطب المنبر - (ج 1 / ص 3876)

وسـعادته، بمنزلة الميت الـذي لا ينفع نفسه ولا يـدفع عنها مكروه.
فإذا هداه الله للإسلام، وجعل قلبه حياً بعد موته، ومشرقاً ومستنيراً بعد ظلمته، فصار يعرف مضار نفسه ومنافعها، ويعمل في خلاصها من سخط الله وعقابه، وأبصر الحق بعد عماه عنه، وعرفه بعد جهله به، واتبعه بعد إعراضه عنه، وحصل له نور يستضيء به، ويمشي به في الناس كما قال سبحانه: (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (122)) [الأنعام: 122].
وحياة القلب واستنارته تحصل بالاستجابة لله والرسول صلى الله عليه وسلم ، وما يدعونا إليه الله والرسول من العلم والإيمان كما قال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24)) [الأنفال: 24].
وحياة القلب وصحته لا تحصل إلا بأن يكون مـدركاً للحـق.. مريـداً لـه.. مـؤثراً له على غـيره.. فـاللهم أرنا الحق حقـاً وارزقنا اتباعه.
والقلب فيه قوتان:
قوة العلم والتمييز.. وقوة الإرادة والمحبة.
وكمال القلب وصلاحه باستعمال هاتين القوتين فيما ينفعه.
فكمـال اسـتعمال قـوة العلم في إدراك الحق ومعرفتـه، والتمييز بينه وبين الباطل، وباستعمال قـوة الإرادة والمحبة في طلب الحق ومحبته، وإيثاره على الباطل.
فمن لم يعـرف الحق فهو ضـال.. ومن عرفه وآثر غـيره عليه فهو مغضـوب عليـه.. ومن عرفه واتبعه فهو منعم عليه.
فالمسلمون أخص بالحق؛ لأنهم عرفوه واتبعوه.
واليهـود أخص بالغضـب؛ لأنهم أمة عنـاد، عرفـوا الحق فلم يتبعوه.

والنصـارى أخص بالضـلال؛ لأنهم أمة جهـل، عرفـوا الحق وضلوا عنه.
وقد أمرنا الله عـزَّ وجـلَّ بطلب الهداية إلى طريق الحـق، وهو طريق المنعم عليهم بمعرفة الحق والعمل به بقوله سـبحانه: (اهْـدِنَا الصِّـرَاطَ الْمُسْـتَقِيمَ (6) صِـرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْـرِ الْمَغْضُـوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّـالِّينَ (7)) [الفاتحة: 6، 7].[15]
وكل إنسـان خاسر في هـذه الحيـاة، إلا من كملت قوته العلمية بالإيمـان باللـه، وقوته العملية بالعمل بطاعة الله تعالى، فهذا كماله في نفسه.
ثم كمَّل غيره بوصيته له بذلك، وأمره إياه به، والصـبر على ذلك، كما قال سبحانه: (وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ وَتَوَاصَـوْا بِـالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3)) [العصر: 1-3].
وهاتان القوتان لا تتعطلان في القلب.
بل إن اسـتعمل العبد قوته العلمية في معرفة الحق وإدراكه، وإلا اسـتعملها في معرفة ما يليق به ويناسـبه من الباطل.
وكـذا قوته الإراديـة، إن اسـتعملها في العمل بـالحق، وإلا استعملها في ضـده. ولا سـعادة للقلب ولا لـذة ولا نعيم ولا صلاح إلا بأن يكون الله هو إلهه وفاطره ومعبـوده وحـده لا شريك له.[16]
فكـلُّ مخلـوق، وكل حي، سـوى الله سـبحانه، من ملك أو إنس أو جن أو حيوان أو نبـات فهو فقـير إلى ربه في جلب ما ينفعـه، ودفع ما يضـره، ولا يتم ذلك إلا بتصـوره للنـافع والضار.[17]
والمنفعة من جنس النعيم واللذة، والمضرة من جنس الألم

---

[15] - وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله :{وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} (69) سورة النساء
[16] - موسوعة خطب المنبر - (ج 1 / ص 2579)العبد بين الألم والحزن
[17] - قال تعالى :{يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} (15) سورة فاطر

والعذاب.
فلا بدَّ للعبد من أمرين:
أحدهما: معرفة ما هو المحبوب المطلوب الذي ينتفع بـه، ويلتذ بإدراكه.
والثـاني: معرفة المعين الموصل المحصل لـذلك المقصود.
وبإزاء ذلك أمران آخران:
أحدهما: مكروه بغيض ضار.
والثاني: معين دافع له عنه.
فهذه الأربعة ضرورية لكل عبد، بل لكل حيوان.
وإذا ثبت ذلك فالله تعـالى هو الـذي يجب أن يكـون هو المقصود المدعو والمطلوب الذي يراد وجهه، ويبتغَى قربه، ويطلب رضاه، وهو المعين على حصول ذلك.
وعبودية ما سواه، والالتفات إليه، والتعلق بـه، هو المكـروه الضـار، والله هو المعين على دفعـه، فهو سـبحانه الجـامع لهذه الأمور الأربعة دون سواه.
فهو المعبـود المحبـوب المـراد.. وهو المعين لعبـده على وصـوله إليه وعبادته لـه.. والمكـروه البغيض إنما يكـون بمشيئته وقدره.. وهو المعين لعبده على دفعه عنه.
والله تبـارك وتعـالى خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفتـه، والإنابة إليه، ومحبته، والإخلاص له.
فبـذكره سـبحانه تطمئن قلـوبهم[18]، وتسـكن نفوسـهم، وبرؤيته في الآخرة تقر عيونهم، ويتم نعيمهم.
فلا يعطيهم سـبحانه في الآخـرة شـيئاً خـيراً لهم، ولا أحب إليهم، ولا أقر لعيونهم من النظر إليـه، وسـماع كلامه منـه، ورضوانه عليهم[19].
ولم يعطهم في الـدنيا شـيئاً خـيراً لهم، ولا أحب إليهم، ولا أقر لعيـونهم من الإيمـان بـه، ومحبته والشـوق إلى لقائـه،

[18] - قال تعالى :{..أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} (28) سورة الرعد
[19] - قال تعالى :{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23) } [القيامة/22-24]

والأنس بقربه، والتنعم بذكره وعبادته.[20]

وحاجة العباد إلى ربهم في عبادتهم إياه أعظم من حـاجتهم إليه في خلقه لهم، ورزقه إياهم، ومعافاة أبدانهم.

فإن العبادة هي الغاية المقصودة لهم، ولا صلاح ولا سـعادة لهم بدون ذلك.

والله تبارك وتعالى يريد من خلقه أن يعرفــوا أطيب ما في الدنيا.. وأطيب ما في الآخرة.. فيقبلون عليه علماً وعملاً.

ويعرفوا شر ما في الدنيا.. وشر ما في الآخـرة.. فيحـذروه ويجتنبوه.

والأصل هو القلب، فــإن كــان صــالحاً صــلحت أعمــال الجوارح، وإن كان فاسداً فسدت أعمال الجوارح.

والعين تبصر في ضـوء الشـمس صـورة الشـيء لا حقيقة الشيء، امتحانـاً وابتلاءً، ولكن لا يعـرف الحقيقة إلا القلب، ويعرف القلب ذلك إذا كان فيه نور الإيمان.

فكما تحتـاج العين إلى الضـوء الخـارجي لمعرفة الأشـياء ورؤيتهـا، فكـذلك القلب لا يعـرف حقيقة الشـيء إلا بنـور الإيمان، ومن اسود قلبه لا يعرف حقيقة الأشياء، بل يعرف صور الأشياء.

وإذا اسـتنار القلب بنـور الإيمـان أنـاب إلى اللـه، فـأحبَّ الطاعات وكره المعاصي، وبنـور القلب تـبين قيمة الأمـوال والأشـياء، وقيمة الإيمـان والأعمـال، ولا يبقى للعبد تعلـقٌ بالدنيا، بل يكون تعلقه بالآخرة.

ونور الإيمان في القلب يرسخ حقيقة الوعد والوعيد.

وإذا جاءت حقيقة الوعد والوعيد زدنا في الطاعـات، ونفرنا من المعاصي، وزهدنا في الدنيا، ورغبنا في الآخرة.

ونور القلب في الـدنيا يكـون مسـتوراً، وفي الآخـرة يكـون ظاهراً للمؤمنين.

---

[20] - ففي صحيح البخارى برقم (6549)عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - « إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ . يَقُولُونَ لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ . فَيَقُولُ هَلْ رَضِيتُمْ فَيَقُولُونَ وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ . فَيَقُولُ أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ . قَالُوا يَا رَبِّ وَأَىُّ شَىْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِى فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا » .

وبامتثـال أوامر اللـه، وفعل كل سـنة، يـزداد نـور القلب، وبمخالفة السنن يزيد ظلام القلب، وتثقل الطاعات.
ومحبة الله نـور في القلب والوجـه.. ومحبة غـير الله ظلام في القلب والوجه.
وكل من أقرَّ بـ (لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) جـاء النور في قلبه، وإذا جاء نور الهداية في القلب سهل تطبيق أوامر الله، والإكثار منها، والتلذذ بهـا، ودعـوة النـاس إليهـا، والصبر على كل ذلك.
ونـــور الهداية في القلب: أن يـــتيقن العبد أن المعطي والمانع، والمعزَّ والمذلَّ، والنافع والضارَّ، والمحيي والمميت فقط هو الله وحده لا شريك له.
وحاجات القلب كثيرة كالبحر، وحاجات البدن كالقطرة، لأن القلب محلُّ الإيمان، والإيمان ليس له حدٌّ، وبالإيمان يسـعد الإنسان في الدنيا والآخرة.
والإيمـان يزيد في القلـوب بكـثرة الطاعـات، والنظر في الآيـات الكونيـة، والآيـات القرآنيـة، والجهد للـدين، وتحصل بذلك الهداية.
ولكنَّ الباطل لا يـزول إلا بالتضـحية بكل شـيء من أجل إعلاء كلمة الله بـالأموال، والأنفس، والشـهوات، والجـاه، والأوقات.
ولما تـركت الأمة التضـحية بـذلك نقص الإيمـان، وقلت الطاعـات، وكـثرت المعاصـي، فجـاء البلاء والفسـاد والعقاب[21].
فالشـيطان يـزين للإنسـان الشـهوات الـتي عاقبتها الهلاك، والأنبياء يـأمرون النـاس بالإيمـان والأعمـال الصـالحة الـتي عاقبتها الفلاح.
وزينة القلب بالإيمـان، وزينة الجـوارح بالأعمـال، وزينة الإنسان الداخلية والخارجية تكمل بـالأخلاق الحسـنة، الـتي وصف الله بها نبيه محمداً صـلى الله عليه وسـلم بقولـه:

[21] - قال تعالى :{قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} (24) سورة التوبة

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4)) [القلم: 4].
وليس في الوجــود شــيء غــير الله ســبحانه يســكن إليه القلب، ويطمئن به، ويأنس به، ويتلذذ بالتوجه إليه.
ومن عبد غير الله سبحانه، وحصل له به نوع لـذة ومنفعـة، فمضـرته بـذلك أضـعاف أضـعاف منفعتـه، وهو بمنزلة أكل الطعام المسموم اللذيذ.
وكما أن الســـموات والأرض لو كـــان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا[22]، فكذلك القلب إذا كان فيه معبود غير الله تعـالى، فسد فساداً لا يرجى صلاحه، إلا بأن يخرج ذلك المعبود من قلبه، ويكون لله وحده هو إلهه ومعبوده ومحبوبه.
وفقر العبد إلى أن يعبد الله وحــده لا شــريك لــه، ليس له نظــير فيقــاس بــه، ولكن يشــبه من بعض الوجــوه حاجة الجسد إلى الطعـام والشـراب والنفس، لكن بينهما فـروق كثيرة.
فـإن حقيقة العبد قلبه وروحـه، ولا صـلاح له ولا سـعادة إلا بإلهه الحق الذي لا إله إلا هو.
فلا يطمئن إلا بــذكره.. ولا يســكن إلا بمعرفته وحبــه.. ولو حصل له من اللذات والسرور بغـيره ما حصل فلا يـدوم له ذلك.
وكثيراً ما يكون ذلك الــذي يتنعم به هو أعظم أســباب ألمه ومضرته.
وأما إلهه الحق فلا بدَّ له منه في كل وقت، وفي كل حــال، وأينما كان.
فنفس الإيمان به، ومحبته وعبادته، وإجلاله وذكره، هو غذاء الإنسان وقوته، وصلاحه وقوامه[23].
أما من قال: إن عبادة الله وذكـره وشـكره تكليف ومشـقة لمجرد الابتلاء والامتحان، أو لأجل مجـرد التعـويض بـالثواب المنفصــل، كالمعاوضة بالأثمــان، أو لمجــرد رياضة النفس وتهذيبها، لـيرتفع عن درجة البهيم من الحيـوان، فهـذا قـول

---

[22] - قال تعالى :{ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} (22) سورة الأنبياء
[23] -انظر مجموع الفتاوى - (ج 1 / ص 25)

من قــلَّ نصــيبه منَ العلم والتحقيــق، ومنْ ذوقِ حقــائق الإيمان وحلاوته.
بل عبادته ســبحانه ومعرفته وتوحيــده وشــكره قــرة عين الإنسان، وأفضل لذة للروح والقلب والجنان.
وليس المقصود بالعبادات والأوامر المشقة والكلفة بالقصد الأول، وإن وقع ذلك ضمناً وتبعاً في بعضها لأسباب اقتضته لا بدَّ منها.
فأوامرُه سبحانه، وحقُّه الذي أوجبه على عبـاده، وشـرائعه التي شرعها لهم، هي قـرة العيـون، ولـذة القلـوب، ونعيم الأرواح وسورها، وبها شفاؤها وسعادتها، وفلاحهـا، وكمالها في معاشها ومعادها كما قال سبحانه: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَـدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِـفَاءٌ لِمَا فِي الصُّـدُورِ وَهُـدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (57) قُـلْ بِفَضْـلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِـهِ فَبِـذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (58) }[يونس:57-58]
ولم يسم الله عزَّ وجلَّ أوامـره ووصـاياه وشـرائعه تكليفـاً، وإنما ســماها روحــاً ونـوراً، وهـدى وحيـاة، ورحمة وشـفاء، وعهــداً ووصــية، ونحو ذلــك، وما ذكر في القــرآن من ذكر التكليف فإنما ورد في جــانب النفي كما قــال ســبحانه: (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْـرًا كَمَا حَمَلْتَــهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَــةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (286)) [البقرة: 286].
وأجل نعيم في الجنـــة، وأفضـــله وأعلاه على الإطلاق، هو النظر إلى وجه الرَّب جلَّ جلاله، وسماع خطابه.
فالمؤمنون مع كمال تنعمهم بما أعطــاهم ربهم في الجنــة، لم يعطهم ربهم شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إليه.
وإنما كـان ذلك أحب إليهم، لأن ما يحصل لهم به من اللــذة والنعيم، والفرح والسرور، وقرة العين، فوق ما يحصل لهم من التمتع بالأكل والشــرب، والحــور العين، ولا نســبة بين اللذتين والنعمتين البتة.
وكما أنه لا نســبة لنعيم ما في الجنــة، إلى نعيم النظر إلى

وجه الأعلى سبحانه، فكذلك لا نسـبة لنعيم الـدنيا إلى نعيم محبته ومعرفته والشوق إليه، والأنس به.
عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُـدْرِىِّ قَـالَ قَـالَ رَسُـولُ اللَّهِ - صـلى الله عليه وسـلم - « إِنَّ اللَّهَ يَقُـولُ لأَهْـلِ الْجَنَّةِ يَا أَهْـلَ الْجَنَّةِ . يَقُولُونَ لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ . فَيَقُـولُ هَـلْ رَضِـيتُمْ فَيَقُولُـونَ وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَـدًا مِنْ خَلْقِـكَ . فَيَقُولُ أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ . قَالُوا يَا رَبِّ وَأَىُّ شَىْءٍ أَفْضَـلُ مِنْ ذَلِـكَ فَيَقُـولُ أُحِـلُّ عَلَيْكُمْ رِضْـوَانِى فَلاَ أَسْـخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا » .**متفق عليه**[24].
والمخلوق كله، كبيره وصغيره، قويه وضعيفه، ليس عنـده للعبد نفع ولا ضر، ولا عطاء ولا منع، ولا هدى ولا ضلال، ولا نصر ولا خذلان، ولا خفض ولا رفع، ولا عز ولا ذل.
بل الله الواحد القهـار هو الـذي يملك كل ذلك وحـده دون سواه.
والعبد ضعيف مضطر إلى من يدفع عنه عدوه بنصره، وإلى من يجلب له منافعه برزقـــه، فلا بـــدَّ له من ناصر ورازق، والله وحده هو الذي ينصر ويرزق، {إِنَّ اللَّهَ هُـوَ الـرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ } (58) سورة الذاريات.
ومن كمال إيمان العبد أن يعلم أن الله إذا مسَّه بسـوء، لم يرفعه عنه غيره، وإذا ناله بنعمة، لم يرزقه إياها سواه.
وهـذا يقتضي من العبد التوكل على اللـه، والاسـتعانة بـه، ودعـاؤه وسـؤاله وحـده دون سـواه، ومحبته وعبادتـه، لإحسانه إلى عبيده، وإسباغ نعمه عليهم.
فإذا أحبوه وعبدوه وتوكلوا عليه، فتح الله لهم من لذيذ مناجاته، وعظيم الإيمان به، والإنابة إليه، ما هو أحب إليهم من قضاء حاجاتهم: (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (107)) [يونس:107]
وقال الله سبحانه: (إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (160)) [آل عمران:160]

---

[24](?)أخرجه البخاري برقم (7518)، ومسلم برقم (7318)

وتعلق العبد بما سوى الله تعالى مضـرة عليـه، إذا أخذ منه فوق القدر الزائد على حاجته، غير مستعين به على طاعته. فإذا نال من الطعام والشراب والنكاح واللباس فوق حاجته ضره ذلك.
ولو أحب العبد ما سوى الله ما أحب، فلا بدَّ أن يُسلبه ويفارقه، فإن أحبه لغير الله فلا بدَّ أن تضره محبته، ويعذب بمحبوبه، إما في الدنيا أو في الآخرة، أو فيهما معاً، وهذا هو الغالب كما قال سبحانه: (فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (55)) [التوبة:55]
فكل من أحب شـيئاً سـوى الله تعـالى، ولم تكن محبته له لله تعـالى ولا لكونه معينـاً له على طاعتـه، عـذب به في الدنيا قبل يوم القيامة.
فإذا كان يوم القيامة ولَّى الحكم العدل سـبحانه كـلَّ محب ما كان يحبه في الدنيا، فكان معه إما منعماً أو معذباً.
فـالمؤمن الـذي يحب المؤمـنين، يكـون معهم في الجنة[25]، والكـــافر الـــذي اجتمع مع الكفـــار على غـــير طاعة الله ورسوله، يجمع الله بينهم يوم القيامة في النار، ويعذب كلاًّ منهم بصـاحبه، ويلعن بعضـهم بعضـاً كما قـال سـبحانه: (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُـــــهُمْ لِبَعْضٍ عَـــــدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67)) [الزخرف: 67].
فكل من أحبَّ شيئاً سوى الله فالضرر حاصل له بمحبوبـه، إن وجد وإن فقد، فإنه إن فقده عـذب بفراقـه، وتـألم على قدر تعلق قلبه به.
وإن وجـده كـان ما يحصل له من الألم قبل حصـوله، ومن النكد والتعب في حـال حصـوله، ومن الحسـرة عليه بعد فوته، أضعاف أضعاف ما في حصوله من اللذة.
واعتماد العبد على المخلوق، وتوكله عليه، يوجب له الضرر من جهته هو ولا بدَّ، عكس ما أمَّله منه، فلا بدَّ أن

---

[25] -ففي صحيح البخارى برقم (6171) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِىَّ - صلى الله عليه وسلم - مَتَّى السَّاعَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ « مَا أَعْدَدْتَ لَهَا » . قَالَ مَا أَعْدَدْتُ لَهَا مِنْ كَثِيرِ صَلاَةٍ وَلاَ صَوْمٍ وَلاَ صَدَقَةٍ ، وَلَكِنِّى أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ . قَالَ « أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ » .

يُـخذلَ من الجهة التي قدر أن يُنصر منها، ويُذم من حيث قدر أن يُّـحمد كما قال سبحانه: (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آَلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (82)) [مريم:]
فالمشرك يرجو بشركه النصر تارة.. والعز تارة.. والسعادة تارة.. والحمد تارة.. والثناء تارة.. وأنى له ذلك.
فصلاح القلب وسعادته وفلاحه في عبادة الله وحده.
والاستعانة به وحده: (فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213)) [الشعراء:213]
وهلاك القلب وشقاؤه، وضرره العاجل والآجل، في عبادة المخلوق والاستعانة به، فاحذر ذلك: (لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (22)) [الإسراء: 22].
والله عـزَّ وجـلَّ غـني كـريم، عزيز رحيم، فهو محسن إلى عبـده مع غنـاه عنـه، يريد به الخـير، ويكشف عنه الضـر، لا لجلب منفعة إليه من العبد، ولا لدفع مضرة.
بل رحمة منه وإحساناً ومحبة له، وهو سبحانه لم يخلق خلقه ليتكثر بهم من قلة، ولا ليعتز بهم من ذلة، ولا ينفعوه أو يدفعوا عنه أو يرزقوه: كما قال سبحانه : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58)) [الذاريات:56-58]
ومـاذا يملك العبد الفقـير حـتى يعطي؟.. ومـاذا يعلم من الخلق حـتى يواسي غـيره؟.. ومـاذا يملك من العمر حـتى يبقى؟.
إن العبد المخلوق لا يعلم مصلحتك حـتى يعرفه الله تعـالى إياهـا، ولا يقـدر على تحصـيلها لك حـتى يقـدره الله تعـالى عليهـا، ولا يريد ذلك حـتى يخلق الله فيه إرادة ومشـيئة لذلك.
فعاد الأمر كله لمن ابتدأ منـه، فهو الـذي بيـده الخـير كلـه، واليه يرجع الأمر كلـه، فتعلق القلب بغـيره ضـرر محض لا منفعة فيه، وما يحصل بذلك من المنفعة فهو سبحانه الـذي قدرها ويسرها وأوصـلها إليـك، وغـالب الخلق إنما يريـدون

قضاء حوائجهم منك، وإن أضرَّ ذلك بدينك ودنياك، فهم إنما يريدون قضاء حوائجهم ولو بمضرتك.

والــــرَّبُّ تبـــارك وتعـــالى إنما يريد لك المصـــلحة، ويريد الإحسان إليك لك لا لمنفعته، ويريد دفع الضرر عنك، فكيف تعلق أملك ورجاءك وخوفك بغيره؟

والله سبحانه رفيع الـدرجات، الـذي تعـالت ذاته أن يُتقـرب إليه إلا بالعمل الصالح الـزكي الطـاهر، وهو الإخلاص الـذي يرفع درجات أصحابه ويقربهم إليه، ويجعلهم فوق خلقه.

والوحي للأرواح والقلوب، بمنزلة الأرواح للأجساد، فكما أن الجسد بلا روح لا يحيا ولا يعيش، فكـــذلك الـــروح والقلب بدون روح الوحي لا يصلح ولا يفلح: (فَـادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِـينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (14) رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَـادِهِ لِيُنْـذِرَ يَـوْمَ التَّلَاقِ (15)) [غافر: 14، 15].

إن من لم يكن في قلبه نور الإيمـان، يـرى العـزة بـالأموال والأشياء، لا بالإيمان والأعمـال، وبـذلك يحـرم من الأعمـال الصالحة، ويتعلق قلبه بالفانية.

وكلما ضـعف الإيمـان نقص الـدين، فتوجه النـاس إلى غـير الله، والعمل بلا يقين كالجسد بلا روح لا فائدة فيه، واليقين أن نعتقد أن جميع الفــوز والفلاح، في الــدنيا والآخــرة، بيد الله وحده لا شريك له.

وإذا كــانت القلــوب متوجهة إلى اللـــه.. والأجســـاد مزينة بالسنن، فتحت للإنسان أبواب الهداية والسـعادة في الـدنيا والآخرة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَـدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُـوبَكُمْ وَمَنْ يُطِـعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71) [الأحزاب:].

وإذا أحب الله عبداً، هـداه إليـه، وأدخله بيتـه، وأشـغله فيما يحب، واستعمل قلبه وجوارحه فيما يحب: (اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْـهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (13)) [الشورى: 13].



4- حياة القلب [26]

قال الله تعالى: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (97)) [النحل: 97].

وقــــال الله تعــــالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُـــوا اسْـــتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُـولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24)) [الأنفال: 24].

حيـــاة القلب ونعيمه وســـروره وبهجته بالإيمـــان باللـــه، ومعرفته ومحبتــه، والإنابة إليــه، والتوكل عليــه، وعبادتــه، وطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

فإنه لا حياة أطيب من هذه الحياة، ولا نعيم فـوق نعيمها إلا نعيم الجنة الذي يجتمع فيه كمال الإيمان، وكمال النعيم.

وإذا كــانت حيــاة القلب حيــاة طيبة تبعته حيــاة الجــوارح، فطابت كما طاب.

وقد جعل الله الحيـــاة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته كما قال سبحانه في الآية السابقة

وحياة القلب تكون بثلاثة أشياء:

قصر الأمل.. وتدبر القرآن.. وتجنب مفسدات القلب.

فأما قصر الأمل، فهو العلم بقرب الرحيل، وسرعة انقضـاء مدة الحياة، وهو من أنفع الأمور للقلب.

فإنه يبعثه على تدارك الأيام، وانتهاز الفرص التي تمر مرَّ السحاب، ويثير عزمات القلب إلى دار البقاء والخلود، ويزهده في الدنيا، ويرغبه في الآخرة كما قال سبحانه: (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ

---

[26] - مجموع الفتاوى - (ج 10 / ص 104) ومجموع الفتاوى - (ج 10 / ص 109) وفتاوى يسألونك - (ج 4 / ص 198) وفتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج 4 / ص 9355) وفتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج 9 / ص 2688) وإحياء علوم الدين - (ج 2 / ص 358)وآفات على الطريق كامل - (ج 1 / ص 341) وففروا إلى الله1 - (ج 1 / ص 122) ومدارج السالكين - (ج 3 / ص 4)وتنبيه الغافلين، الإصدار 2 - (ج 1 / ص 36) وموسوعة خطب المنبر - (ج 1 / ص 2703)

بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (35)) [الأحقاف: 35].
وأما تدبر القرآن، فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر، كما قال سبحانه: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (29)) [ص: 29].
فليس شـيء أنفع للعبد في معاشه ومعـاده، وأقـرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وجمع الفكر فيه على معـاني آياتـه، فإنها تطلع العبد على معـالم الخـير والشـر، وتدله على مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتريه صور الدنيا والآخرة، والجنة والنار.
وتحضره بين الأمم السابقة، وتريه أيام الله فيهم، وتشـهده عدل الله وفضـله، وتعرفه ذاته وأسـمائه وصـفاته وأفعالـه، وما يحبه الله وما يبغضه.
وتريه طريق أهل الجنة، وأهل النار، ومراتب أهل السعادة، وأهل الشـقاوة، وتطلعه على تفاصـيل الأمر والنهي، والشـرع والقـدر، والحلال والحـرام، والـترغيب والـترهيب، والمواعظ والصبر وغيرها.
وأما مفسـدات القلب فكـثرة الخلطـة. والتمـني.. والتعلق بغير الله.. وكثرة الشبع وكثرة النوم.. فهـذه الخمسة أكـبر مفسدات القلب.
فالقلب السليم يسير إلى الله تعالى والـدار الآخـرة، وهـذه الخمسة تطفئ نـوره، وتضـعف قـواه، قاطعة له عن الوصـول إلى ما خلق لـه، وجعل نعيمه وسـعادته وابتهاجه ولذته في الوصول إليه.
فإنه لا نعيم للقلب ولا لذة، ولا ابتهاج ولا كمـال، إلا بمعرفة الله ومحبتـه، والطمأنينة بـذكره، والفـرح والابتهـاج بقربـه، والشوق على لقائه، فهذه جنته العاجلة.
كما أنه لا نعيم له في الآخـرة، ولا فـوز ولا فلاح إلا بجـوار ربه في دار النعيم في الجنة الآجلة.
فله جنتان: لا يدخل الثانية منهما حتى يـدخل الأولى، وهـذه الأشياء الخمسة قاطعة عن هذا، حائلة بين القلب وبينه.

ولحياة القلب علامات أهمها:
وجل القلب من الله سبحانه، وشدة خوفه منه، كما قال سبحانه: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آَيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2)) [الأنفال:2]

ومنها: القشعريرة في البدن، ولين الجلود والقلوب عند سماع القرآن كما قال الله سبحانه: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (23)) [الزمر: 23].

ومنها: خشوع القلب عند ذكر الله سبحانه كما قال الله عزَّ وجلَّ: (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (16)) [الحديد: 16].

ومنها: الإذعان للحق والإخبات له كما قال الله سبحانه: (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آَمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (54)) [الحج: 54].

ومنها: كثرة الإنابة إلى الله كما قال الله سبحانه: (مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (33) [ق: 33].

ومنها: السكينة والوقار كما قال الله سبحانه: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4)) [الفتح: 4].

ومنها: خفقان القلب بحب المؤمنين كما قال الله سبحانه: (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آَمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (10)) [الحشر: 10].

ومنها: سلامة القلب من الأحقاد كما قال الله سبحانه(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا

نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103))   [آل عمران: 103].

وإذا مات قلب العبد تعطلت جوارحه عن الطاعة والعبادة.. ولم يؤد حق الله من الطاعة والعبودية.. ولم يعمل بكتاب ربِّه.. ولا بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .. وعادَى الرحمن.. ووالَى الشيطان.

وأكل رزق الله ولم يشكره.. ودفن الموتى ولم يعتبر.. وعلم أن الموت حق ولم يستعد له.. وأقبل على الدنيا يعمرها ويجمعها وينافس في جمع حطامها.. ويتعذب بذلك ليله ونهاره كله(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (55)) [التوبة: 55].

ومحركات القلوب إلى الله عزَّ وجلَّ ثلاثة [27]:

المحبة.. والخوف.. والرجاء.

فالمحبة أقواها، ويحركها في القلب كثرة ذكر المحبوب، ومطالعة آلائه ونعمائه، فيسير إلى محبوبه الذي يرى كل نعمة منه.

والخوف، المقصود منه المنع والزجر عن الخروج عن الطريق.

ويحركه في القلب مطالعة آيات الوعيد والزجر، والعرض والحساب والنار وأهوالها، والعقوبات التي حلت بالمجرمين.

أما الرجاء، فيقود الإنسان إلى الطريق،ويحركه في القلب مطالعة الكرم والإحسان، والحلم والعفو، والعطاء والمنّ.

وقلوب العباد كلهم بيد الله [28]:

---

[27] - مجموع الفتاوى - (ج 1 / ص 89) ومجموع الفتاوى - (ج 1 / ص 95) وفتاوى يسألونك - (ج 6 / ص 283) وفتاوى الإسلام سؤال وجواب - (ج 1 / ص 5523) والتخويف من النار - (ج 1 / ص 17) ومدارج السالكين - (ج 3 / ص 42)

[28] - عَنْ أَنَسٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ « يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِى عَلَى دِينِكَ ». فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ آمَنَّا بِكَ وَبِمَا

فمن أقبل على الله أقبل الله بقلوب عباده إليه فأحبوه.
ومن أعرض عن الله أعرض الله بقلوب عباده عنه.
(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (96)) [مريم: 96].

جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا قَالَ « نَعَمْ إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ »مسند أحمد{6/251} برقم (26887) وسنن الترمذى برقم (2290) صحيح.

5- فتوحات القلب[29]

قال الله تعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69)) [العنكبوت: 69].

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ قَالَ حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ خَطِيبًا يَقُولُ سَمِعْتُ النَّبِىَّ - صلى الله عليه وسلم - يَقُولُ « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِى الدِّينِ ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللَّهُ يُعْطِى ، وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِىَ أَمْرُ اللَّهِ » **متفق عليه**[30].

القلب إذا خلا من الاهتمام بالدنيا، وتعلق بالآخرة، وتأهب للقدوم على الله عزَّ وجلَّ، فذلك أول فتوحه، وتباشير فجره.

فعند ذلك يتحرك قلب العبد لمعرفة ما يرضى به ربه منه، فيفعله ويتقرب به إليه، وينبعث لمعرفة ما يسخطه منه فيجتنبه.

فإذا تمكن العبد في ذلك، فتح الله له باب الأنس بالخلوة والوحدة، ومحبة الأماكن الخالية التي تهدأ فيها الأصوات والحركات، فلا شيء أشوق إليه من ذلك.

فإنها تجمع عليه قوى قلبه وإرادته وإقباله على ربه، وتسد عليه الأبواب التي تفرق همه، وتمزق شمله.

ثم يفتح له باب حلاوة العبادة، بحيث لا يكاد يشبع منها، ويجد فيها من اللذة والراحة أضعاف ما كان يجده في لذة اللهو واللعب، ونيل الشهوات.

ثم يفتح له باب حلاوة استماع كلام الله فلا يشبع منه، وإذا سمعه هدأ قلبه كما يهدأ الصبي إذا أعطي ما هو شديد المحبة له.

ثم يفتح له باب شهود عظمة المتكلم به وجلاله، وكمال نعوته وصفاته، ومعاني خطابه، بحيث يستغرق قلبه في

---

[29] - مدارج السالكين - (ج 7 / ص 32) وموسوعة فقه القلوب - (ج 3 / ص 17)

[30](?)أخرجه البخاري برقم (71)، ومسلم برقم (2436).

ذلك.
ثم يفتح له باب الحياء من الله عـزَّ وجـلَّ، وهو أول شـواهد المعرفة، وهو نور يقع في القلب، يريه ذلك النور أنه واقف بين يدي ربه عزَّ وجلّ، فيستحي منه في خلواته وجلواته.
ويرزقه الله عند ذلك دوام المراقبة للـرقيب، ودوام التطلع إلى ربه، حتى كأنه يراه ويشـاهده فـوق سـماواته ، نـاظراً إلى خلقه، سامعاً لأصواتهم، مطلعاً على حركاتهم.
فإذا استولى هذا على العبد، غطى عليه كثـيراً من الهمـوم بالدنيا وما فيها، فهو في وجود بين يدي ربه ووليه، والنـاس في وجود آخر.
ثم يفتح له بـاب الشـعور بمشـهد القيومية لربه على جميع الكائنات، فيرى سائر التقلبـات الكونيـة، وتصـاريف الوجـود بيده سبحانه وحده.
فيشـــهده ذلك ربه العظيم، مالك النفع والضـــر، والخلق والرزق، والإحياء والإماتة، فيتخـذه وحـده وكيلاً، ويرضى به ربـــاً ومـــدبراً، وعند ذلك إذا وقع نظـــره على شـــيء من المخلوقات دله على خالقه وبارئه.
فإذا استمر له ذلك، فتح عليه باب القبض والبسط، فيقبض عليه حـــتى يجد ألم القبض لقـــوة وارده، وتفيض أنـــوار المعرفة والمحبة والإخلاص من قلبـــه، كما يفيض نـــور الشمس من جرمها.
وكلما ســـار إلى ربه من الطريق الموصل إليـــه، زادت الهداية في قلبه، وزاد نور الإيمـان، وانشـرح صـدره، ووجد اللذة في طاعة مولاه.
فـإذا اسـتمر على حالـه، واقفـاً ببـاب مـولاه، لا يلتفت عنه يميناً ولا شمالاً، ولا يجيب غير من يدعوه إليه، ويعلم أنه لم يصل بعد، رجا أن يفتح له فتح آخر، هو فوق ما كان فيه.
فيسـتغرق قلبه في أنـوار مشـاهدة جلال اللـه، بعد ظهـور أنوار الوجـود الحـق، ويبقى قلبه سـابحاً في بحر من أنـوار آثار الجلال والجمال لربه، فتنبع الأنوار من باطنــه، كما ينبع المـــاء من العين، ويجد قلبه عاليـــاً صـــاعداً إلى من ليس فوقه شيء.

ثم يرقيه الله تبارك وتعالى فيشهد قلبه أنـوار الإكـرام، بعد ما شهد أنوار الجلال والعظمة لمولاه.

فيسـتغرق في نـور من أنـوار أشـعة الجمـال والإكـرام، والإنعام والإحسان، فيذوق المحبة الخاصـة، الملهبة للأرواح والقلوب، الباعثة لحسن العبادة، ولذة المناجاة.

فيبقى القلب مأسوراً في يد حبيبه العزيز الكريم، ووليه الغفور الرحيم، ممتحناً بحبه، مستسلماً لطاعته، متلذذاً بعبادته، مستغرقاً في جلاله وجماله، وهذا غاية مراد الرب من عبده: (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (4)) [الجمعة: 4].

والناس مفتونون ممتحنون بما يفنى، من الأموال والأشياء، والصـور والرئاسـة، معـذبون بـذلك قبل حصـوله، وحـال حصوله، وبعد حصوله.

وأشرفهم منزلة، وأعلاهم مرتبة، من يكـون مفتونـاً بـالحور العين، أو عـاملاً على تمتعه في الجنـة، بالأكل والشـرب والجماع واللباس.

وهـذا المحب قد تـرقى في درجـات المحبة على غـيره، ينظـرون إليه في الجنة كما ينظـرون إلى الكـوكب الـدري الغـابر في الأفـق، لعلو درجته عند ربـه، وقـرب منزلته من حبيبه.

عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ أَنَّ رَسُـولَ اللَّهِ -صـلى الله عليه وسلم- قَـالَ : « إِنَّ أَهْـلَ الْجَنَّةِ لَيَتَـرَاءَوْنَ أَهْـلَ الْغُـرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا تَتَـرَاءَوْنَ الْكَـوْكَبَ الـدُّرِّىَّ الْغَـابِرَ مِنَ الأُفُـقِ مِنَ الْمَشْـرِقِ أَوِ الْمَغْـرِبِ لِتَفَاضُـلِ مَا بَيْنَهُمْ ». قَـالُوا يَا رَسُـولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لاَ يَبْلُغُهَا غَيْـرُهُمْ. قَـالَ « بَلَى وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَـدَّقُوا الْمُرْسَـلِينَ ». **متفق عليه**[31].

وهذا العبد معية الله معه، فإن المرء مع من أحب، ولكل عمل جزاء، وجزاء المحبة المحبة: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (

[31] (?) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (3256)، ومسلم برقم (7322)، واللفظ له.

31)) [آل عمران: 31].

فهذا العبد لا يـزال ربه يرقيه طبقـاً بعد طبـق، ومـنزلاً بعد منزل، إلى أن يوصـله إليـه، ويمكن له بين يديـه، أو يمـوت في الطريق، فيقع أجره على الله، وله ما نوى.

والقلوب بيد الله، يقلبها كيف يشاء، ولها إقبال وإدبار، فـإذا أقبلت نشطت للفرائض والسنن، وتلـذذت بـذلك، ونافست في الخير، وسارعت إليه قولاً وفعلاً.

وإذا أدبـــرت وضـــعفت نلزمها على الأقل الفـــرائض والواجبات.

6- أقسام القلوب [32]

قال الله تعالى: (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (16)) [الحديد: 16].

وقال الله تعالى: (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74)) [البقرة: 74].

تنقسم قلوب العباد إلى ثلاثة أقسام [33]

صحيح.. وسقيم.. وميت.

فالقلب الصحيح هو السليم الذي قد صارت السلامة صفة ثابتة له، قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره.

فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله، وسلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما.

بل قد خلصت عبوديته لله تعالى إرادة ومحبة، وتوكلاً وإنابة، وخشية وإخباتاً وخوفاً ورجاء.

وخلص عمله لله، فإنْ أحبَّ أحب في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فهذا أزكى القلوب، وهو القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به: (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89) [الشعراء: 88، 89].

والقلب الثاني: القلبُ الميتُ الذي لا حياة به، فهو لا

---

[32] -موسوعة خطب المنبر - (ج 1 / ص 780 و2224و 4486و 4610و 5066) وموسوعة فقه القلوب - (ج 3 / ص 19)

[33] -موسوعة خطب المنبر - (ج 1 / ص 1418)وفتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج 2 / ص 4009) وفتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج 2 / ص 4010) وفتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج 3 / ص 5510)

يعرف ربه، ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه.
بل هو واقف مع شهواته ولذاته، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه، رضي ربه أم سخط، فهو متعبد لغير الله حباً وخوفاً ورجاءً، ورضاً وسخطاً، وتعظيماً وذلاً.
إنْ أحبَّ أحب لهواه.. وإن أبغض أبغض لهواه.. وهواه أحب إليه وآثر عنده من رضا مولاه.
فالهوى إمامه.. والشهوة قائده.. والجهل سائقه.. والغفلة مركبه.. والسيئات تجارته.. والمعاصي بضاعته.. والمحرمات سلعته.
لا يستجيب لداعٍ ولا ناصح، ويتبع كل شيطان مريد.. من الإنس والجن، فهذا أخبث القلوب وأنجسها وأركسها:
(.ِالَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35)) [غافر: 35].
والقلب الثالث: قلب له حياة وبه علة، فهو السقيم.
فله مادتان: تمده هذه مرة.. وهذه أخرى، وهو لما غلب عليه منهما.
ففيه من محبة الله تعالى، والإيمان به، والإخلاص له، والتوكل عليه، ما هو مادة حياته ونجاته.
وفيه من محبة الشهوات وإيثارها، والحرص على تحصيلها، والحسد والكبر والعجب، وحب العلو والفساد في الأرض بالرياسة، والظلم، ما هو مادة هلاكه وعطبه.
وهو ممتحن بين داعيين:
داعٍ يدعوه إلى الله والدار الآخرة، وداعٍ يدعوه إلى العاجلة، وهو إنما يجيب أقربهما منه بابًا، وأعلاهما صوتًا، وأكثرها حضوراً.
فالقلب الأول حيٌّ مخبت واع لين، والثاني يابس ميت، والثالث مريض.
فإن كان له مذكر فهو إلى السلامة أدنى، وإن لم يكن له مذكر فهو إلى العطب أدنى، وهوصيد من يسبق إليه.
وقد جمع الله بين هذه القلوب الثلاثة في قوله سبحانه:

(لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (53) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (54)) [الحج: 53، 54].

فالقلب الصحيح السليم ليس بينه وبين قبول الحق ومحبته وإيثاره سوى إدراكه، فهو الإدراك للحق، ثم الانقياد له والقبول.

والقلب الميت القاسي لا يقبل الحق ولا ينقاد له.

والقلب المريض إن غلبت عليه صحته التحق بالقلب السليم، وإن غلب عليه مرضه التحق بالقلب الميت القاسي.

وكل ما يلقيه الشيطان في الأسماع من الألفاظ.. وفي القلوب من الشبه والشكوك.. فتنة لهذين القلبين.. وقوة للقلب الحي السليم.. لأنه يرد ذلك ويكرهه ويبغضه.. ويعلم أن الحق في خلافه.

ويستدل على معرفة ما في القلوب بحركة اللسان، فإن القلوب كالقدور تغلي بما فيها، وألسنتها مغارفها.

فلسان المرء يغرف لك من قلبه:

حلو وحامض.. وعذب وأجاج.. وحار وبارد.. وطيب وخبيث.. وحسن وقبيح.. وحق وباطل.. وخير وشر.

فالقلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل.. ومن الحقد والحسد.. ومن الشح والبخل.. ومن الكبر والعلو.. ومن حب الدنيا.. وحب الرياسة.

فسلم من كل آفة تبعده عن الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره، وسلم من كل شهوة تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطع عن الله والدار الآخرة.

ولا تتم له سلامته مطلقًا حتى يسلم من خمسة أشياء:

من شرك يناقض التوحيد.. ومن بدعة تخالف السنة.. ومن شهوة تخالف الأمر.. ومن غفلة تناقض الذكر.. ومن هوى

يناقض الإخلاص.

والقلــوب بالنســبة للاســتجابة للحق تنقسم إلى قسمين:

أحدها: قلوب مستجيبة للحـق، فهـذه بـأرفع المنـازل في الدنيا والآخرة.

الثاني: قلوب معرضة عن الحق، والإعراض مراتب:

فالإعراض مرتبة... والتكـذيب مرتبة فوقهـا.. ثم الاسـتهزاء مرتبة فوقهـا.. والمرتبة الأسـوأ من ذلك هي الصد عنه كما قـال الله سـبحانه: (الَّذِينَ كَفَـرُوا وَصَـدُّوا عَنْ سَـبِيلِ اللَّهِ زِدْنَـاهُمْ عَـذَابًا فَـوْقَ الْعَـذَابِ بِمَا كَـانُوا يُفْسِـدُونَ (88)) [النحل: 88].

والله جل جلاله جعل القلوب على ثلاثة أقسام:

مخبتة.. ومريضة.. وقاسية.

فالقلوب المخبتة: هي التي تنتفع بالقرآن، وتزكو به.

والإخبات: سـكون الجـوارح على وجه التواضع والخشـوع لله.

ومن آثار الإخبات:

وجل القلــوب لــذكر الله سـبحانه، والصــبر على أقــداره، والإخلاص في عبوديتــه، والإحســان إلى خلقه كما قــال سبحانه: (لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَـةً لِلَّذِينَ فِي قُلُـوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِـيَةِ قُلُـوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِـقَاقٍ بَعِيـدٍ (53) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَـهُ قُلُـوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَـادِ الَّذِينَ آمَنُـوا إِلَى صِـرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (54)) [الحج: 53، 54].

فالقلب المخبت ضد القاسي والمريض، وهو سبحانه الــذي جعل بعض القلــوب مخبتًا إليــه، وبعضــها قاســيًا، وجعل للقسوة آثارًا، وللإخبات آثارًا.

أما القلـوب القاسـية الحجريـة، فهي الـتي لا تقبل ما يبث فيها، ولا ينطبع فيها الحق، ولا ترتسم فيها العلـوم النافعـة، ولا تلين لإعطاء الأعمال الصالحة.

فالقسوة يبس في القلب يمنعه من الانفعال، وغلظة تمنعه من التـأثر بـالنوازل، فلا يتـأثر لغلظه وقسـاوته، لا لصـبره

واحتماله.
ومن آثار قسوة القلب:
تحريف الكلم عن مواضعه.. وعدم قبول الحق.. والصدّ عنه.. ونسيان ما ذكِّر به، وهو ترك ما أمره الله به علمًا وعملاً كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74)﴾ [البقرة: 74].
أما القلوب المريضة فهي التي يكون الحق ثابتًا فيها، لكن مع ضعف وانحلال كما قال سبحانه: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (53)﴾ [الحج: 53].
فذكر سبحانه القلب المريض وهو الضعيف المنحل الذي لا تثبت فيه صورة الحق، ثم القلب القاسي اليابس الذي لا يقبلها ولا تنطبع فيه.
فهذان القلبان شقيان معذبان.
ثم ذكر القلب المخبت المطمئن إليه، وهو الذي ينتفع بالقرآن ويزكو به.
وهذا الاختبار والامتحان مظهر لمختلف ما في القلوب الثلاثة.
فالقاسية والمريضة ظهر خبؤها من الشك والكفر، والمخبتة ظهر خبؤها من الإيمان والهدى، وزيادة محبة الرب، وبغض الكفر والشرك.
والقلب عضو من أعضاء الإنسان، وهو أشرف أعضائه، وكل عضو كاليد مثلاً، إما أن يكون جامدًا يابسًا، أو يكون مريضًا ضعيفًا، أو يكون حيًا قويًا.
فالقلوب كذلك ثلاثة:
قلب قاسٍ بمنزلة اليد اليابسة.. وقلب مائع رقيق جدًا.. وقلب رقيق صاف صلب.
فالأول لا ينفعل بمنزلة الحجر، والثاني بمنزلة الماء، وكلاهما ناقص.

وأصح القلـوب القلب الرقيق الصـافي الصـلب.. فهو يـرى الحق من الباطل بصفائه.. ويقبله ويـؤثره برقتـه.. ويحفظه ويحارب عدوه بصلابته.

وهذا أحب القلوب إلى الله، وهو القلب المستقيم المخبت المطمئن: (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (34) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (35)) [الحج: 34، 35].

وأبغض القلــوب إلى الله القلب القاســي، والقلب القاسي والمريض كلاهما منحرف عن الاعتدال، هذا بمرضـه، وهـذا بقسوته: (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْـلٌ لِلْقَاسِـيَةِ قُلُـوبُهُمْ مِنْ ذِكْـرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَـلَالٍ مُبِينٍ (22))   [الزمر: 22].

وهؤلاء أصحاب القلوب المريضة والقاسية، المعرضون عن دين الله، المعارضون له، ألا يتدبرون كتـاب اللـه، ويتأملونه حق التأمل؟.

فـإنهم لو تـدبروه لدلهَّـم على كل خـير، وحـذرهم من كل شــر، ولملأ قلــوبهم من الإيمــان، وأفئــدتهم من الإيقــان، ولأوصلهم إلى المطالب العالية، والمـواهب الغاليـة، ولـبين لهم الطريق الموصـــــلة إلى الله وإلى جنتـــــه، والطريق الموصلة إلى العذاب، وبأي شيء تحذر؟.

ولعــرفهم بــربهم ســبحانه، وبأســمائه وصــفاته وإحســانه، ولشوقهم إلى الثواب الجزيل، ورهبهم من العقاب الوبيل.

أم قلوبهم مقفلة على ما فيها من الشر، فلا يدخلها خير أبدًا: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24)) [محمد: 24].

اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك، وارزقنا حسن تلاوة كتابك، وحسن العمل بشرعك، وصدق الإخلاص في عبادتك: (رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (53))   [آل عمران: 53].

7- غذاء القلوب [34]

قال الله تعالى: (الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28)) [الرعد: 28].

وقال الله تعالى: (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآَنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82)) [الإسراء: 82].

الله عزَّ وجلَّ جعل للقلوب نوعين من الغذاء[35]:

الأول: الطعام والشراب الحسي، وللقلب منه خلاصته وصفوه، ولكل عضو منه بحسب استعداده وقبوله.

الثاني: غذاء روحاني معنوي، خارج عن الطعام والشراب من السرور والفرح، والابتهاج واللذة، والعلوم والمعارف.

وبهذا الغذاء كان سماويًا علويًا، وبالغذاء المشترك كان أرضيًا سفليًا، وقوامه بهذين الغذاءين.

وللقلب ارتباط بكل واحدة من الحواس الخمس، وله غذاء يصل إليه منها كحاسة السمع والبصر، وحاسة اللمس والشم والذوق، وارتباطه بحاستي السمع والبصر أشد من ارتباطه بغيرهما، ووصول الغذاء منهما إليه أكمل وأقوى من سائر الحواس.

وانفعاله عنهما أشد من انفعاله عن غيرهما، واقترانه في القرآن بهما أكثر من اقترانه بغيرهما.

بل لا يكاد يقرن إلا بهما أو بأحدهما كما قال سبحانه:

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (78)) [النحل: 78].

وتأثر القلب بما يراه ويسمعه، أعظم من تأثره بما يلمسه ويذوقه ويشمه، ولأن هذه الثلاثة هي أهم طرق العلم وهي السمع والبصر والعقل.

---

[34] -آفات على الطريق كامل - (ج 1 / ص 195) وموسوعة خطب المنبر - (ج 1 / ص 3521) وموسوعة خطب المنبر - (ج 1 / ص 4888) وموسوعة فقه القلوب - (ج 3 / ص 24)

[35] -مدارج السالكين - (ج 5 / ص 17)

وتعلق القلب بالسمع والبصر، وارتباطه بهما، وتأثره بهما لا يخفى، لكن ما يدركه بحاسة السمع من العلم والهـدى أعم وأشمل، وما يدركه بحاسة البصر أتم وأكمل.

فللسمع العموم والشمول، والإحاطة بـالموجود والمعـدوم، والحاضر والغـــائب، والحسي والمعنـــوي، وللبصر التمـــام والكمال.

وهــذه الحــواس الخمس لها أشــباح وأرواح، وأرواحها حظ القلب ونصيبه منها.

فمن النـــــاس من ليس لقلبه منها نصـــــيب إلا كنصـــــيب الحيوانات البهيمية منها، فهو بمنزلتها كما قال سبحانه: (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُـونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَـامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (44)) [الفرقان: 44]

ولهـذا نفى الله تبـارك وتعـالى عن الكفـار السـمع والبصر والعقل، لعدم انتفـاعهم بها كما قـال سـبحانه: (وَلَقَـدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِــيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُــوبٌ لَا يَفْقَهُــونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِــرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْـمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَـــامِ بَـــلْ هُمْ أَضَـــلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَـــافِلُونَ (179)) [الأعراف: 179].

فهم يسمعون ويبصـرون بـالحواس الظـاهرة، وبهما قـامت عليهم الحجة، ولا يسمعون ولا يبصرون بـالحواس الباطنـة، التي هي سماع القلب، الـتي هي روح حاسة السـمع، الـتي هي حظ القلب، ولو سمعوه من هذه الجهـة، لحصـلت لهم الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة.

وتعلق السمع الظاهر الحسي بالقلب، أشد من تعلق البصر بـه، وآثـاره على قلب الإنسـان أسـرع وأشـد، فربما غشي على الإنسان إذا سمع كلامًا يسره أو يسوؤه، أو صوتًا لذيذًا طيبًا مناســبًا، ولا يحصل له ذلك من رؤية الأشــياء بالبصر الظاهر إلا نادرًا.

فإذا كان المسموع معنى شريفًا بصوت لذيـذ، حصل للقلب حظه ونصيبه من إدراك المعـنى، وابتهج به أتم ابتهـاج على حسب إدراكه لـــه، كما يحصل للقلب عند ســـماع آيـــات القرآن المرتلة.

وللـروح حظها ونصـيبها من لـذة الصـوت ونغمته وحسـنه، فيحصل لها الارتياح، ويتم الابتهـاج، وتتضـاعف اللـذة، حـتى ربما فـاض الابتهـاج والسـرور على البـدن والجـوارح وعلى الجليس.
ويكـاد القلب لكمـال لذتـه، وتـوفر غذائـه، أن يفـارق هـذا العـالم، ويلج عالمًا آخـر، ويجد له لـذة وحالة لا يعهـدها في شيء غيره البتة.
وذلك لمحة من حال أهل الجنة في الجنة.
فيا له من غذاء ما أصلحه.. وما أنفعه.. وما أيسره.
والقلب يتأثر بالسماع بحسب ما فيه من المحبة، فـإذا امتلأ من محبة الله، سمع كلام محبوبه، وتأثر به وانتفع به.
وقلوب البشر على ثلاثة أقسام :
أحـدها: من اتصف قلبه بصـفات نفسـه، بحيث صـار قلبه نفسًا محضة، فغلبت عليه آفات الشهوات والأهواء.
فهـذا حظه من السـماع الـديني كحظ البهـائم، لا يسـمع إلا دعاءً ونداءً.[36]
الثاني: من اتصـفت نفسه بصـفات قلبـه، فصـارت نفسه قلبًا محضًا، فغلبت عليه المعرفة والمحبة، والعقل واللب.
وعشق صــفات الكمــال، فاســتنارت نفسه بنــور قلبــه، واطمأنت إلى ربها، وقرت عينها بعبوديته، وصـار نعيمها في حبه وقربه.
فهـذا حظه من السـماع مثل أو قـريب من حظ الملائكـة، وسماعه غذاء قلبه وروحه، وقرت عينه.
الثالث: من له منزلة بين منزلتين، وقلبه بـاق على فطرته الأولى، لكن ما تصـرف في نفسه تصـرفًا أحالها إليــه، ولا قـــويت النفس على القلب فأحالته إليهـــا، فـــبين النفس والقلب منازلات ووقائع.
تــدال النفس عليه تــارة.. ويــدال عليها تــارة.. والحــرب سجال.
فهذا حظه من السماع حظ بين الحظين، فإن صـادفه وقت

36 - قال تعالى : {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ } (171) سورة البقرة

دولة القلب كــان حظه منه قويًــا، وإن صــادفه وقت دولة النفس كان ضعيفًا[37].

ومن هنا يقع التفــاوت في الفقه عن اللـــه، والفهم عنـــه، والابتهاج به، وحصول النعيم واللذة بسماع كلامه.

وخلاصة غــذاء القلــوب يمكن الحصــول عليه من أربعة أبواب :

الأول: الكلام في عظمة اللــه، وعظمة أســمائه وصــفاته وأفعاله والتحدث بذلك، والنظر في الآيات الكونية، والآيـات القرآنية.

الثاني: الكلام في آلاء الله ونعمه، ورؤية إحســانه وجماله وإكرامه والتحدث بذلك كما قال سبحانه: (وَأَمَّا بِنِعْمَــةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)) [الضحى: 11].

الثــالث: معرفة وعد الله لعبــاده المتقين بالجنـــة، وذكر منازلها وقصـــــورها، ورؤية ما فيها من النعيم واللـــــذات، والتنعم برؤية الــرب جل جلالــه، وســماع كلامــه، والتحـدث بذلك بين الناس.

الرابع: معرفة وعيد الله لمن عصاه، وتذكر النــار وما فيها من السـعير والسـموم، والقمع والإحـراق، وعند ذلك تـرق القلوب وتمتلئ بالخوف والوجل من معصـية الــرب، وتقبل على ربها بلباس الإيمان والتقوى.

وحاجات الإنسان قبل الموت كـالقطرة، وحاجـات الإنسـان بعد الموت كالبحر.

وحاجات البدن في الدنيا كالقطرة، وحاجات القلب كالبحر.

وليس للقلــوب ســرور ولا لــذة ولا نعيم إلا بالإيمــان بالله ومحبته، والتقرب إليها بما يحبه، وليس في الدنيا نعيم يشــبه نعيم الآخرة إلا نعيم الإيمان بالله والمعرفة به.

ومن كان محبًا لغـير الله في الـدنيا، فهو معـذب في الـدنيا والآخـرة، فـإن نـال مـراده عـذب بـه، وإن لم ينله فهو في العذاب والحسرة والحزن.

وكل من استقام على الدين، واجتهد للدين، ظهـرت شـعب الإيمان في حياته، من التوكل والخشية، والخـوف والرجـاء،

---

[37] -مدارج السالكين - (ج 5 / ص 19)

والمحبة والإنابـــة، والاســـتعانة بالله في جميع الأقـــوال والأعمال الظاهرة والباطنة.
وفاز بالسعادة في الدنيا.. ودخل الجنة في الآخرة.

8- فقه أعمال القلوب[38]

قــال الله تعــالى: (ذَلِـكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَــعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (32)) [الحج: 32].
وقال الله تعالى: (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (52)) [النور: 52].
الأوامر تــنزل في كل لحظة من ذات الله تبــارك وتعــالى، والأعمـال تصـدر من ذات الإنسـان، فـإذا تطـابقت الأوامر والأعمال، فلهذا الإنسان السـعادة في الـدنيا والآخـرة، وإذا خالفت أعمال الإنسان أوامر الرب، شقي هذا الإنسـان في الدنيا والآخرة.
والأعمال التي تصدر من الإنسان نوعان:
أعمال القلوب.. وأعمال الجوارح.
وأعمال القلوب من أصول الإيمان وقواعد الدين:
كالإيمــان والتوحيــد.. ومحبة الله ورســوله.. والتوكل على اللـــه.. وإخلاص الـــدين لـــه.. واليقين على ذاته وأســـمائه وصــفاته.. والخــوف منــه.. والرجــاء لــه.. والخشــية منــه.. والخشوع لـه.. والتـذلل والتضـرع بين يديـه.. والصـبر على حكمه، والاستعانة به ونحو ذلك.
فهـذه الأعمـال جميعها واجبة على جميع الخلـق، والناس فيها على ثلاث درجات كما هم في أعمال الأبدان على ثلاث درجات[39]:
ظالم لنفسه.. ومقتصد.. وسابق بالخيرات.

---

[38] - موسوعة خطب المنبر - (ج 1 / ص 67) وموسوعة خطب المنبر - (ج 1 / ص 875) وموسوعة خطب المنبر - (ج 1 / ص 1291) وموسوعة خطب المنبر - (ج 1 / ص 2575) وموسوعة خطب المنبر - (ج 1 / ص 3138) وموسوعة خطب المنبر - (ج 1 / ص 3823) وموسوعة خطب المنبر - (ج 1 / ص 3936) وموسوعة فقه القلوب - (ج 3 / ص 27)

فالظـــالم لنفســـه: هو العاصي بـــترك مـــأمور، أو فعل محظور.
والمقتصد: المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات.
والسابق بالخيرات: المتقرب إلى ربه بما يقدر عليه من فعل واجب ومستحب، التـارك للمحـرم والمكـروه، الـذاكر لربه في كل حين.
وأعمـال القلـوب، وأعمـال الجـوارح، كلاهما مطلـوب، لكن الأول أساسي للثاني، والثاني مظهره وعلامته، لكنه لا يقبل بدونه.
وإنما خص الله أعمال القلوب بالتحصيل دون أعمال الجوارح، لأن أعمال الجوارح تابعة لأعمال القلوب، فلولا إرادة القلب لم تحصل أفعال الجوارح ولهذا قال سبحانه: (أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (9) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (10) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (11)) [العاديات: 9ـ11].
وجعل الله القلوب الأصل في المدح كما قال سبحانه: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2)) [الأنفال: 2].
وجعلها الأصل في الـذم كما قـال سـبحانه: (وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَـفَرٍ وَلَمْ تَجِـدُوا كَاتِبًا فَرِهَـانٌ مَقْبُوضَـةٌ فَـإِنْ أَمِنَ بَعْضُـكُمْ بَعْضًـا فَلْيُـؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَـهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُـوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (283)) [البقرة: 283].
وقد خلق الله عزَّ وجلَّ القلوب، وجعلها محلاً لمعرفته ومحبته وإرادته، فهي عرش المثل الأعلى الذي هو معرفة الله ومحبته وإرادته كما قال سبحانه: (لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (60)) [النحل: 60].
والقلب إن لم يكن أطهر الأشـــــــــياء وأنزهها

[39] - مجموع الفتاوى - (ج 7 / ص 368) ومجموع الفتاوى - (ج 10 / ص 6) وإحياء علوم الدين - (ج 3 / ص 152) وموسوعة خطب المنبر - (ج 1 / ص 2432) وموسوعة خطب المنبر - (ج 1 / ص 2906)

وأطيبهــا، لم يصــلح لاســتواء المثل الأعلى عليه معرفة ومحبة وإرادة، وإلا استوى عليه مثل الدنيا الأسـفل ومحبتها وإرادتهـا، حـتى تعـود القلـوب على قلبين:

قلب هو عرش الـرحمن: ففيه النـور والحيـاة، والفـرح والسرور، والبهجة وذخائر الخير.

وقلب هو عرش الشـيطان: فهنـاك الضـيق والظلمـة، والموت والحزن، والهم والغم.

والنـور الـذي يـدخل القلب إنما هو من آثـار المثل الأعلى، فلـــــذلك ينفسح وينشـــــرح، وإذا لم تكن فيه معرفة الله ومحبته فحظه الظلمة والضيق.

والتوحيد والإيمـــان والإخلاص شـــجرة في القلب، فروعها الأعمال الصـالحة، وثمرها طيب الحيـاة في الـدنيا، والنعيم المقيم في الآخرة.

والشرك والكذب والرياء شجرة في القلب فروعها الأعمال السيئة، وثمرها في الدنيا الخوف والهم والغم، وفي الآخرة عذاب الجحيم.

فشـــجرة الإيمـــان أصـــلها ثـــابت في قلب المـــؤمن علمًا واعتقـــــادًا، وفرعها من الكلم الطيب، والعمل الصـــــالح، والأخلاق المرضـية، والآداب الحسـنة، في السـماء دائمًــا، يصـعد إلى الله منه من الأعمــال والأقــوال الــتي تخرجها شجرة الإيمـان، ما ينتفع به المـؤمن، وينفع غـيره كما قـال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَـةً طَيِّبَـةً كَشَـجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُـؤْتِي أُكُلَهَا كُـلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَـالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَـذَكَّرُونَ (25)﴾ [إبراهيم: 24، 25].

وأما شـــجرة الكفر فهي شـــجرة خبيثة المأكل والمطعم كشـجرة الحنظل ونحوهــا، لا عــروق تمســكها، ولا ثمــرة صالحة تنتجها.

كذلك كلمة الكفر والمعاصي ليس لها ثبوت نافع في القلب، ولا تثمر إلا كل قول خبيث، وعمل خبيث، يضر صاحبه ولا ينفعه، ولا يصعد إلى الله منه عمل صالح كما

قال سبحانه: (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (26) [إبراهيم: 26].
والقلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن الله بقــدر تعلقها بها.
والقلـــــوب آنية الله في أرضـــــه، وأحبها إليه ألينها وأرقها وأصفاها.
وإذا زهــدت القلــوب في موائد الــدنيا، قعــدت على موائد الآخرة، وإذا رضيت بموائد الدنيا فاتتها تلك الموائد الغالية.
ولا تدخل محبة الله في قلب فيه حب الدنيا، وإذا أحب الله عبدًا اصطنعه لنفسه، واستخلصه لعبادته، فشـغل همه بــه، ولسانه بذكره، وجوارحه بخدمته، وصرف قلبه عما سواه.
والقلب يعمــل، والبــدن يعمــل، والقلب يمـرض كما يمـرض البدن، وشـفاؤه بالتوبة والحميــة.. والقلب يصـدأ كما تصـدأ المرآة، وجلاؤه بالذكر.. والقلب يعـرى كما يعـرى الجسـم، وزينته بالتقوى..
والقلب يجـــوع ويظمأ كما يجـــوع البـــدن ويظمـــأ، وطعامه وشـــرابه العلم بالله والمعرفـــة، والمحبة والتوكـــل، والإنابة والعبادة.
والوصول إلى المطلـوب المحبـوب موقـوف على ثلاثة أمور:
هجر العوائد.. وقطع العلائق.. وإزالة العوائق.
فالعوائد: ما ألفه الناس واعتادوه من الرســوم والعــادات الــتي جعلوها بمنزلة الشــرع المتبــع، بل هي عند بعضــهم أعظم من الشرع، وهذه الرسوم قد اسـتولت على طوائف من بني آدم من الملوك والولاة والفقهاء والعامة والخاصة.
ينكرون على من خالفها، وربما كفروه أو بدعوه، أو ضــللوه أو قتلـــوه، واتخـــذها النـــاس ســـننًا، وهُجر لأجلها الكتـــاب والسنة.
وأما العلائـــــق: فهي كل ما تعلق به القلب من دون الله من ملاذ الدنيا وشهواتها ورياساتها، وصحبة الناس، والتعلق بهم.
ولا ســبيل إلى قطعها إلا بقــوة التعلق بــالمطلوب الأعلى،

فإن النفس لا تترك مألوفها ومحبوبها إلا لمحبـوب هو أحب إليها منه.
وأما العوائق: فهي أنـواع المخالفـات الـتي تعـوق القلب عن سيره إلى الله وهي ثلاثة: الشرك، والبدعة، والمعصية.
والإيمان مبني على أصلين:
أحدهما: تصديق الخبر عن الله ورسوله، وبــذل الجهد في رد الشـــبهات الـــتي توحيها شـــياطين الجن والإنس في معارضته.
الثاني: طاعة أمر الله ورسوله، ومجاهدة النفس في دفع الشهوات التي تحول بين العبد وبين كمال الطاعة.
فالشبهات والشهوات أصل فساد العبد وشـقائه في معاشه ومعاده.
كما أن الأصلين الأولين: تصديق الخبر، وطاعة الأمــر، أصل فلاح العبد وسعادته في معاشه ومعاده.
وكل عبد له قوتان:
الأولى: قـــــوة الإدراك والنظـــــر، وما يتبعها من العلم والمعرفة والكلام.
الثانية: قــوة الإرادة والحب، وما يتبعهما من النية والعــزم والعمل.
فالشــبهات تــؤثر فســادًا في القــوة العلمية النظرية ما لم يداوها بدفعها.
والشــهوات تــؤثر فســادًا في القــوة الإرادية العملية ما لم يداوها بإخراجها.
ومن تمام حكمة الله تعالى أنه يبتلي هذه النفوس بالشقاء والتعب في تحصيل مراداتها وشـهواتها، فلا تتفـرغ للخـوض في الباطل إلا قليلاً، ولو تفرغت هذه النفـوس لكـانت أئمة تدعو إلى النار.
وهذا حال من تفرغ منها كما هو مشاهد بالعيــان، فإن داء الأولين والآخرين أمران:
اتبـــاع الشـــهوات المانعة من متابعة الأمـــر.. والخـــوض بالشبهات المانعة من الانقياد للأمر.
وهذا شأن النفوس الباطلة التي لم تخلق لنعيم الآخرة، ولا

تــزال ســاعية في نيل شــهواتها، فــإذا نالتها فإنما هي في خـــوض بالباطل الـــذي لا يجـــدي عليها إلا الضـــرر العاجل والآجـــل، فاحـــذر هـــؤلاء ومجالســـهم: (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (68)) [الأنعام: 68].

ومن رزقه الله قلبًا ســليمًا، رأى الحق حقًا واتبعـــه، ورأى الباطل باطلاً واجتنبه.

فإذا رأى الناس متوكلين على تجارتهم، وصحة أبدانهم، توكل على الله: (إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (3)) [الطلاق: 3].

وإذا رآهم يذلون أنفسهم في طلب الرزق اشتغل بما لربه عليه، لعلمه أن رزقه سيأتيه: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (6))   [هود: 6].

وإذا رآهم يتحاسـدون في دنيـاهم تـرك ذلك لهم، لعلمه أن نصـيبه من الـرزق سيصل إليـه، ولن يأخـذه غـيره: (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (32)) [الزخرف: 32].

وإذا رأى النــاس يطلبــون العــزة والمكانة عند المخلــوق بالمـال والجـاه والمناصـب، طلب المكانة عند ربه بـالتقوى كما قـال سـبحانه: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)) [الحجرات: 13].

وإذا رأى النـاس يركضـون وراء شـهواتهم، أجهد نفسه في دفع الهـوى حـتى تسـتقر على طاعة الله عـزَّ وجـلَّ: (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41)) [النازعات: 40، 41].

وإذا رأى الخلق كل له محبوب، فإذا وصل إلى القـبر فارقه محبوبـه، جعل محبوبه حسـناته الـتي لا تفارقــه:(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (46) [الكهف: 46].

9- صفات القلب السليم [40]

قال الله تعالى: (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89)) [الشعراء: 87-89].

وقال الله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آَيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) [الأنفال: 2، 3].

القلب السليم الذي ينجو من عذاب الله يوم القيامة، هو القلب الذي قد سلم من مرض الشهوات، وسلم من مرض الشبهات، الذي قد سلم لربه، وسلم لأمره، ولم تبق فيه منازعة لأمره، ولا معارضة لخبره.

فهو سليم مما سوى الله وأمره، لا يريد إلا الله، ولا يفعل إلا ما أمره الله عزَّ وجلَّ.

فالله وحده غايته.. وأمره وشرعه وسيلته.. لا تعترضه شبهة تحول بينه وبين تصديق خبره.. ولا شهوة تحول بينه وبين متابعة رضاه.

ومتى كان قلب العبد كذلك فهو سليم من الشرك، وسليم من البدع، وسليم من المعاصي، وسليم من الغي، وسليم من الباطل.

فالقلب السليم هو الذي سلم لعبودية ربه حبًا وخوفًا، ورجاءً وطمعًا، وسلم لأمره وسلم لرسوله تصديقًا وطاعة، واستسلم لقضاء الله وقدره، فلم يتهمه ولم ينازعه، ولم يتسخط لأقداره.

فأسلم لربه ومولاه انقيادًا وخضوعًا، وذلاً وعبودية.

وسلم جميع أحواله وأقواله، وأعماله الظاهرة والباطنة، لما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وسالم أولياء الله وحزبه المفلحين، الذابين عن دينه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، والقائمين بها، والداعين إليها.

وعادى أعداءه المخالفين لكتاب الله وسنة نبيه صلى الله

---

[40] - موسوعة فقه القلوب - (ج 3 / ص 32)

عليه وسلم ، الخارجين عنهما، الداعين إلى خلافهما.
والمــؤمن حي، والكــافر ميت، والميت لا يــؤمر بصــلاة ولا صيام حتى تنفخ فيه روح الإيمان، وإن كــان سيحاسب على تركه الإيمان والأعمال يوم القيامة.
فإذا حيي قلبه بالإيمان، صار قابلاً ومسـتعدًا لقبـول الأوامر والنواهي.
فــالمؤمن حي، والحي إما صــحيح، وإما مــريض، فصــاحب القلب السـليم هو الصـحيح، وصــاحب القلب المــريض هو السقيم.
والمرض قسمان [41]:
مرض شبهة.. ومرض شهوة.
فالأول كما قال سبحانه عن المنافقين: (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (10)) [البقرة: 10].
والثاني: كما قال سبحانه: (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (32)) [الأحزاب: 32].
وشفاء هذين المرضين في القرآن كما قال سبحانه: (إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (14)) [فصلت: 44].
ويحصل تـــــأثر القلب بـــــالقرآن أو بالمواعظ أو غيرها بأربعة أمور:
الأول: المؤثر كالقرآن مثلاً يسمعه أو يقرؤه.
الثاني: المحل القابل، وهو القلب الحي الذي يعقل عن الله.
الثالث: وجود الشرط، وهو الإصغاء.
الرابع: انتفاء المانع، وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب.
فإذا تمت هذه الشروط، حصل الأثر، وهو الانتفــاع والتــذكر

---

[41] - مجموع الفتاوى - (ج 10 / ص 95) وفتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج 3 / ص 2753) ومجلة مجمع الفقه الإسلامي - (ج 2 / ص 14774)

والاستقامة.
كما قال سبحانه: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (37)) [ق: 37].
(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى) هذا هو المؤثر.
(لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ) هذا هو المحل.
(أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ) وهذا هو الشرط وهو الإصغاء.
(وَهُوَ شَهِيدٌ) وهذا انتفاء المانع.
وقلب الإنســـان له أربعة أبـــواب، وكلها تصب في القلب وهي:
اللسان.. والأذن.. والعين.. والدماغ.
فما يتكلم به اللسـان يتـأثر به القلب، فـإذا تكلم بالإيمـان، وتلاوة القرآن، تأثر بذلك قلبه، وزاد إيمانه.
والأذن باب إلى القلب، فإذا سمع كلمات الإيمـان والقـرآن تأثر بها قلبه، وزاد إيمانه.
والعين بـاب إلى القلب، فـالنظر إلى المخلوقـات، وعظيم صنع الباري يؤثر في القلب، وتعلم الإيمان بالنظر للكاملين في الإيمان، فكلما نظروا إلى المخلوق زاد إيمانهم بالخالق سبحانه.
أما ناقص الإيمان فينظر إلى المخلوق ويغرق فيــه، فينقص إيمانه، لأنه اشتغل به ولم يتعداه إلى خالقـه: (قُـلِ انْظُـرُوا مَــاذَا فِي السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآَيَــاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (101)) [يونس: 101].
وكلما تفكر الـدماغ في عظمة اللـه، وعظيم إحسـانه، تـأثر بذلك القلب، وزاد إيمانه.
والقلب السليم هو ما سلم من ستة أدواء:
فهو ســليم من الشــرك.. ســليم من الجهــل.. ســليم من الكبر.. سليم من الغفلة.. سليم من حب الدنيا.. ســليم من سيئ الأخلاق.
فهو قلب طــاهر زكي، مملــوء بالإيمـــان والتوحيد والعلم، والتواضع لربــه، ولــزوم ذكــره، يحب الله والــدار الآخــرة، متجمل بمكارم الأخلاق.
فهذا القلب السليم إذا نظر الله إليه، وأحبه واجتباه،

وأعانه على كل خير، ومنع عنه كل سوء، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69)) [العنكبوت: 69].

وإذا تأكد المسلم من صحة قلبه وسلامته، فهو مطالب بالمحافظة عليه بما يحفظ عليه قوته بالإيمان وأوراد الطاعات، وإلى حمية من المؤذي الضار، وذلك باجتناب الآثام والمعاصي والمحرمات.

وإلى استفراغ المواد الفاسدة التي تعرض له بالتوبة النصوح والاستغفار، وإلى شغله بكل ما يورث القلب إيمانًا، ويزيده من العلم النافع، والعمل الصالح، والدعوة إلى الله، فكل ذلك أغذية له.

والقلب السليم: هو الذي سلم من الغل والحقد، والحسد والشح، وسلم من كل آفة تبعده عن الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره، وسلم من كل شهوة تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله.

فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا، وفي جنة في البرزخ، وفي جنة يوم المعاد، حيث كمال النعمة، وكمال النعيم، ورؤية المنعم جل جلاله.

ولا تتم سلامته مطلقًا حتى يسلم من خمسة أشياء:

من شرك يناقض التوحيد.. ومن بدعة تخالف السنة.. ومن شهوة تخالف الأمر.. ومن غفلة تناقض الذكر.. ومن هوى يناقض التجريد.

وهذه الخمسة حجب عن الله، ولهذا اشتدت حاجة العبد بل ضرورته إلى أن يسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم كل يوم، بل في كل صلاة، بل في كل ركعة.

والقلب يتعلق به أحكام من جهة خلقه وشكله.. ومن جهة الوارد عليه من الله، ومن النفس، والشيطان.. ومن جهة المطلوب منه من العبادة وطاعة الله ورسوله.

وخير القلوب ما كان داعيًا للخير ضابطًا له، وليس كالقلب القاسي الذي لا يقبله، فهذا قلب حجري، ولا كالمائع

الأخرق الذي يقبل، ولكن لا يحفظ ولا يضبط.
والفرق بين سلامة القلب، والبله والتغفل:
أن سلامة القلب تكون من عـدم إرادة الشر بعد معرفتـه.. فيسـلم قلبه من إرادته وقصـده لا من معرفته والعلم بـه.. وهذا بخلاف البله والغفلة.. فإنها جهل وقلة معرفـة.. وهـذا لا يحمد إذ هو نقص.
فالكمـال أن يكـون القلب عارفًا بـالخير، مريـدًا لـه، عارفًا بالشر، سليمًا من إرادته.

وأصل أعمال القلوب المأمور بها:

الإيمــان.. والإحســان.. والتقــوى.. والتوكــل.. والخــوف.. والرجاء.. والإنابة.. والتسليم ونحوها.
وأصل ذلك كله الصــدق، فكل عمل صــالح ظــاهر وبــاطن فمنشؤه الصدق، وأضـداد ذلك من أعمـال القلـوب المنهي عنها هي:
الريــاء.. والعجب.. والكـبر.. والفخــر.. والخيلاء.. والبطــر.. والأشر.. والعجز.. والكسل.. والجبن، وغيرها.
وأصل ذلك كله الكــذب، فكل عمل فاسد ظــاهر وبــاطن فمنشؤه الكذب.
والله عــزَّ وجــلَّ يعـاقب الكـذاب، بـأن يقعـده ويثبطه عن مصالحه ومنافعه، ويثيب الصادق، بأن يوفقه للقيام بمصالح دينه ودنياه وآخرته.
فما اســتجلبت مصــالح الــدنيا والآخــرة بمثل الصــدق، ولا استجلبت مضار الدنيا والآخرة ومفاسدهما بمثل الكذب.
ولهذا رغب الله عباده المؤمـنين بالصـدق، وأمـرهم بلـزوم أهل الصدق في القول والعمل كما قـال سـبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119)) [التوبة: 119].
ولهذا كان الصدق أساس البر، والكذب أساس الفجور، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الصِّدْقَ يَهْـدِى إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْـدِى إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الرَّجُـلَ لَيَصْـدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا ، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِى إِلَى الْفُجُـورِ ، وَإِنَّ الْفُجُـورَ يَهْدِى إِلَى النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْـذِبُ ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْـدَ اللَّهِ

كَذَّابًا » **. متفق عليه[42].**

وأول ما يسري الكذب من النفس إلى اللسان فيفسده، ثم يسري إلى الجـوارح فيفسد عليها أعمالهـا، كما أفسد على اللسان أقواله.

فيعم الكذب أقواله، وأعماله، وأحواله.

فيسـتحكم عليه الفسـاد، ويـترامى داؤه إلى الهلكـة، إن لم يتداركه الله بدواء الصدق الذي يقلع تلك المادة من أصلها:

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْـدَ إِذْ هَـدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَـدُنْكَ رَحْمَـةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (8)) [آل عمران: 8].

[42](1) أخرجه البخاري برقم (6094)، واللفظ له، ومسلم برقم (6803).

10- **فقه سكينة القلب** [43]

قــال الله تعــالى: (هُــوَ الَّذِي أَنْــزَلَ السَّــكِينَةَ فِي قُلُــوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَـانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُـودُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4)) [الفتح: 4].

وقال الله تعالى: (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَـكَ تَحْتَ الشَّـجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُـوبِهِمْ فَـأَنْزَلَ السَّـكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18)) [الفتح: 18].

السكينة: هي الطمأنينة والوقار والسـكون الـذي ينزله الله في قلب عبده، عند اضطرابه من شدة المخاوف.

فلا ينزعج مما يرد عليـه، ويـوجب له زيـادة الإيمـان، وقـوة اليقين والثبـات.

ولهذا أخبر الله عزَّ وجلَّ عن إنزالها على رسوله صلى الله عليه وسـلم وعلى المؤمـنين في مواضع القلق والاضطراب، كيوم الهجرة إذ هو وصاحبه في الغار، والعـدو فوق رؤوسهم، وكيـوم حـنين حين ولـوا مـدبرين من شـدة بـأس الكفـار، وكيـوم الحديبية حين اضـطربت قلـوبهم من تحكم الكفار عليهم.

والسكينة اسم لثلاثة أشياء:

أولها: سـكينة بـني إسـرائيل الـتي أعطوها في التـابوت، ففي أي مكان كان التابوت اطمأنوا إليه وسكنوا.

الثانيـة: الـتي تنطق عل لسـان المحـدثين، ليست شـيئًا يملـك، إنما هي شـيء من لطـائف صـنع الحـق، تلقى على لسان المحدث الحكمة.

فالسكينة إذا نـزلت على القلب اطمـأن بهـا، وسـكنت إليها الجـوارح وخشـعت، وأنطقت اللسـان بالصـواب والحكمـة، وحالت بينه وبين قول الخنا والفحش واللغو وكل باطل.

وربما ينطق من في قلبه السكينة بكلام لم يكن عن فكــرة منه ولا روية، ويستغربه هو من نفسه.

وأكثر ما يكون هذا عند الحاجة، وصـدق الرغبة من السـائل

---

[43] - مجموع الفتاوى - (ج 7 / ص 230) وموسوعة فقه القلوب - (ج 3 / ص 36)

والمجـالس، وصـدق الرغبة منه هو إلى اللـه، وحضـرته مع تجرده من الأهواء.
الثالثة: السكينة الـتي نـزلت على قلب النـبي صـلى الله عليه وسلم وقلوب المؤمنين.
وهذه السكينة تشتمل على النور.. والقوة.. والروح.
فبالروح الذي فيها حياة القلب.. وبالنور الذي فيها استنارته وإشراقه.. وبالقوة ثباته وعزمه ونشاطه.
فالنور يكشف للعبد عن دلائل الإيمـان، ويمـيز له بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشد.. والحياة تـوجب كمـال يقظته وفطنتـه.. والقـوة تـوجب له الصـدق وصـحة المعرفـــة.. وقهر داعي الغي.. وضـــبط النفس عن جزعها وهلعها.. واسترسالها في النقـائص والعيـوب.. ولكي يـزداد بالسكينة إيمانًا مع إيمانه.
والإيمان يثمر له النور والحيـاة والقـوة، فـإذا حصـلت هـذه الثلاثة بالسكينة، سكن إليها العاصي، وهو الذي سكونه إلى المعصية والمخالفة، لعـدم سـكينة الإيمـان في قلبـه، صـار سكونه إليها عوض سكونه عن الشهوات والمخالفات.
فيجد في هـذه السـكينة مطلوبـه، وهي اللـذة الـتي كـان يطلبها في المعصية، فإذا نزلت عليه السكينة اعتاض بلذتها وروحها ونعيمها عن لـذة المعصـية، وصـارت لذته روحانية قلبية، بعد أن كانت لذته جسـمانية بهيميـة، وسـكن خوفـه، وذهب همه وغمه.
فالســـكينة: هي طمأنينة القلب واســـتقراره.. وأصلها في القلب.. ويظهر أثرها على الجـوارح.. والناس فيها متفاوتون:
فســكينة الأنبيــاء عليهم الصـــلاة والســلام أخص مراتبها وأعلاهــا، وذلك مثل الســكينة الــتي نــزلت على إبــراهيم الخليل صـلى الله عليه وسـلم حين ألقي في النـار الـتي أضرمها له أعداؤه.
فلله عظمة وطمأنينة تلك الســكينة الــتي أنزلها الله على قلبه.
وكـذلك السـكينة الـتي حصـلت لموسى صـلى الله عليه

وسـلم وقد غشـيه فرعـون وجنـوده من ورائهم، والبحر أمامهم.
فلله ما ألذ تلك السكينة الـتي أنزلها الله على قلب موسى صلى الله عليه وسلم حين ضرب البحر، وحين عبر البحـر، وحين رأى أعداءه يغرقون في البحر.
وكـذلك السـكينة الـتي حصـلت له وقت تكليم الله له عند الشجرة.
وكذلك السكينة التي حصـلت له وقد رأى العصا ثعبانًا مبينًا أمام فرعون وملئه.
وكذلك السكينة الـتي نـزلت عليه وقد رأى حبـال السـحرة وعصيهم كأنها حيات تسـعى، فـأوجس في نفسه خيفـة، ثم ألقى عصاه التي ابتلعت تلك العصي والحبال.
فلله عظمة تلك السكينة حين رأى فعل ربه بعدوه، ونصـره لنبيه.
وكذلك السكينة الـتي حصـلت لنبينا محمد صـلى الله عليه وسلم في الغار، وقد أشـرف عليه أعـداؤه، فصـرفهم الله عنه.
فلله كم لذة تلك السكينة التي رأى فيها حفظ وليه من كيد أعدائه.
وكذلك السـكينة الـتي نـزلت عليه صـلى الله عليه وسـلم في مواقفه العظيمـة، وأعـداء الله قد أحـاطوا به في يـوم بدر، ويوم الخندق، ويوم حنين، وغيرها.
فهـذه السـكينة أمر فـوق عقـول البشـر، وهي آية عظيمة على صدق الأنبياء.
وأما سـكينة أتبـاع الأنبيـاء، فتكـون للمؤمـنين بحسب متابعتهم، وهي سكينة الإيمان واليقين.
وهي سكينة تسكن القلوب عن الريب والشك، ولهذا أنزلها الله على المؤمنين في أصعب المواطن أحوج ما كانوا إليها كما قال الله سبحانه: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4)) [الفتح: 4].
ولما علم الله ما في قلـوب المؤمـنين من الاضـطراب

والقلق، وذلك حين منعتهم قريش من دخول بيت الله عـام الحديبية، وعلم ما فيها من الإيمان والصـدق والخـير، وحب الله ورسوله ثبتها بالسكينة وأنزلها عليهم كما قال سبحانه: (لَقَـدْ رَضِـيَ اللَّهُ عَنِ الْمُـؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَـكَ تَحْتَ الشَّـجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُـوبِهِمْ فَـأَنْزَلَ السَّـكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18)) [الفتح: 18].

ومنها السـكينة الـتي يجـدها العبد عند القيـام بوظـائف العبوديـة، وهي الـتي تـورث الخشـوع والخضـوع، وجمعية القلب على اللـه، بحيث يـؤدي عبوديته بقلبه وبدنه قانتًا لله عز وجل.

والخشوع نتيجة هذه السـكينة، وثمرتهـا، وخشـوع الجـوارح نتيجة خشوع القلب.

والأسباب المؤدية إلى السكينة سببها اسـتيلاء مراقبة العبد لربه جل جلاله حتى كأنه يراه.

وكلما اشـــتدت هـــذه المراقبة أوجبت له من الحيـــاء والسـكينة، والمحبة والخضـوع، والخـوف والرجـاء، ما لا يحصل بدونها، فالمراقبة أساس الأعمال القلبية كلها.

وقد جمع النـبي صـلى الله عليه وسـلم أصـول أعمـال القلـــوب وفروعها كلها في كلمة واحـــدة، وهي قولـــه: «الإحسان: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَـرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » **متفق عليه**[44].

وكل عبد محتـاج إلى السـكينة عند الوسـاوس المعترضـة، وعند الخطرات السيئة، ليثبت قلبه ولا يزيغ، وعند المخاوف ليثبت قلبه ويسكنه جأشه، وعند الفرح، لئلا يطمح به مركبه فيجـاوز الحـد، وعند هجـوم الأسـباب المؤلمـة، لئلا ييـأس ويقنط.

ولهذا أنزل الله السـكينة على رسـوله وعلى المؤمـنين في مواقع القلق والاضـطراب، كيـوم الهجـرة حينما أحـاط المشركون بالغار، كما قال الله سبحانه: (إِلَّا تَنْصُـرُوهُ فَقَـدْ نَصَـرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَـهُ الَّذِينَ كَفَـرُوا ثَـانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي

---

[44](?) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (50)، واللفظ له، ومسلم برقم (9).

الْغَـارِ إِذْ يَقُـولُ لِصَـاحِبِهِ لَا تَحْـزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَـأَنْزَلَ اللَّهُ سَـكِينَتَهُ عَلَيْـهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُـودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَـلَ كَلِمَـةَ الَّذِينَ كَفَـرُوا السُّـفْلَى وَكَلِمَـةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيـزٌ حَكِيمٌ ﴿40﴾) [التوبة: 40].

وكيوم حـنين حين ولى المؤمنـون مـدبرين من شـدة بـأس الكفــار، كما قــال ســبحانه: (ثُمَّ أَنْــزَلَ اللَّهُ سَــكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿26﴾) [التوبة: 26].

وكيوم الحديبية حين اضطربت قلوب المؤمنين من تحكم الكفار عليهم: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿4﴾) [الفتح: 4].

وأما سكينة الوقار فهي نـوع من السـكينة، وسـكينة الوقـار كالضياء لتلك السكينة، كما يحصل الضياء عن الشمس.

وسكينة الوقار لها ثلاث درجات:

الأولى: ســـكينة الخشـــوع عند القيـــام للخدمة رعاية وتعظيمًا وحضــورًا، فالخشــوع في العبــادة يكــون برعاية حقوقها الظاهرة والباطنة، وتعظيم الخدمة وإجلالهــا، وذلك تبع لتعظيم المعبود وإجلاله ووقاره.

فعلى قـدر تعظيمه في قلب العبد وإجلالـه، يكـون تعظيمه لخدمته وإجلاله ورعايته لها.

وحضـور القلب فيها بمشـاهدة المعبـود كأنه يـراه، ويتقـدم من مقام الإيمان إلى مقام الإحسان كما قال سبحانه: (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُـوبُهُمْ لِـذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَـزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَـالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿16﴾) [الحديد: 16].

الثانية: السكينة عند المعاملة:

وتحصل بمحاسـبة النفس، وملاطفة الخلـق، ومراقبة الحق سبحانه.

فمحاســبة النفس حــتى تعــرف ما لها وما عليهــا، وزكاتها وطهارتها موقوف على محاسبتها.

وبمحاســـبة النفس، يطلع على عيوبها ونقائصـــها، فيمكنه السـعي في إصـلاحها. وملاطفة الخلق بمعـاملتهم بما يحب أن يعـاملوه به من اللطـف، ولا يعـاملهم بـالعنف والشـدة والغلظة، فإن ذلك ينفرهم عنـه، ويغـريهم بـه، ويفسد عليه قلبه ووقته وحاله مع الله.

فليس للقلب شيء أنفع من معاملة الناس باللطف واللين، والحلم والرحمة.

فإن معاملة الناس بذلك ثمرته:

إما أجنــبي تكسب مودته ومحبتــه.. وإما صــاحب وحــبيب فتســتديم صــحبته ومودتـــه.. وإما عـــدو ومبغض فتطفئ بلطفك جمرته وتستكفي شره.

أما مراقبة الله ســبحانه، فهي الموجبة لكل صــلاح، وخــير عاجل أو آجل، ومراقبة الحق سبحانه توجب إصلاح النفس، واللطف بالخلق.

الثالثة: الســـكينة الـــتي تثبت الرضا بالقســـم، وتمنع من الشطح، وتوقف صاحبها عند حده من رتبة العبودية.

فهذه الرتبة توجب لصاحبها أن يرضى بالمقسوم، ولا تتطلع نفسه إلى غــيره، وهي من أعظم مــواهب الحق جل وعلا، ومن أجلّ عطاياه.

ولهـذا لم يجعلها الله في القـرآن إلا لرسـوله وللمؤمـنين، والسكينة كأنها رداء ينزل، فيثبت القلوب الطـائرة، ويهـدئ الانفعالات الثائرة.

اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك.. وصـرفها في طاعتك.. واهدنا لأحسن الأقوال والأعمـال.. إنك تهـدي من تشاء إلى صراط مستقيم.



11 - فقه طمأنينة القلب [45]

قال الله تعالى: (الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28)) [الرعد: 28].
وقال الله تعالى: (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (28)) [الفجر: 27، 28].
الطمأنينة: سكون القلب إلى الشيء، وعدم اضطرابه وقلقه.
فالصدق مثلاً يطمئن إليه قلب السامع، والكذب يوجب له اضطرابًا وارتيابًا.
وذكر الله هو القرآن، وبه تحصل طمأنينة القلوب، فإن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين، ولا سبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلا من القرآن.
والفرق بين السكينة والطمأنينة:
أن الطمأنينة: سكون القلب مع قوة الأمن، والسكينة تصول على الهيبة الحاصلة في القلب فتخمدها في بعض الأحيان، فيسكن القلب في بعض الأوقات.
أما سكون أهل الطمأنينة فهو دائم، ويصحبه الأمن والراحة بوجود الأنس.
والطمأنينة أعم، فإنها تكون في العلم والخبر به واليقين والظفر بالمعلوم، ولهذا اطمأنت القلوب بالقرآن، لما حصل لها الإيمان به.
وأما السكينة فهي ثبات القلب عند هجوم المخاوف عليه وسكونه، وزوال قلقه واضطرابه.
والطمأنينة على ثلاث درجات:
الأولى: طمأنينة القلب بذكر الله عزَّ وجلَّ، وهي طمأنينة الخائف إلى الرجاء، فالخائف إذا طال عليه الخوف واشتد

---

[45] - مجموع الفتاوى - (ج 3 / ص 329) ومجموع الفتاوى - (ج 7 / ص 426)وفتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج 4 / ص 10117) وفتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج 5 / ص 2102) وفتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج 9 / ص 1061) وبريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية - (ج 4 / ص 404) وغذاء الألباب في شرح منظومة الآداب - (ج 1 / ص 114) ومدارج السالكين - (ج 5 / ص 50)

به، وأراد الله عـزَّ وجـلَّ أن يريحه ويحمل عنـه، أنـزل عليه السكينة، فاستراح قلبه إلى الرجاء واطمأن به.
وطمأنينة الضـجر إلى الحكم، فـإن من أدركه الضـجر من قوة التكاليف، وأعياه الأمر، لا سيما من يقوم بدعوة الناس إلى الخير وتعليمهم، وجهاد أعداء الله ونحو ذلك، فلا بدَّ أن يدركه الضجر، ويضعف صبره.
فـــإذا أراد الله أن يريحه ويحمل عنـــه، أنـــزل الله عليه سكينته، فاطمأن إلى حكمه الديني، وحكمه القدري.
وبحسب مشـاهدة العبد لهما تكـون طمأنينته وراحتـه، بل لذته.
فـإذا اطمـأن إلى حكمه الـديني علم أنه دينه الحـق، وهو صراطه المستقيم، وهو ناصره وناصر أهله وكافيهم.
وإذا اطمـأن إلى حكمه الكـوني، علم أنه لن يصـيبه إلا ما كتب الله لـه، وأنه ما شـاء كـان، وما لم يشأ لم يكن، فلا وجه للجزع والقلق إلا ضعف الإيمان واليقين.
فكل محـذور، وكل مخـوف، إن لم يقـدر فلا سـبيل إلى وقوعه، وإن قُدر فلا سبيل إلى صرفه، بعد أن أبرم تقـديره العليم القدير.
وأما طمأنينة المبتلى إلى المثوبـة، فـإن المبتلى إذا قـويت مشـاهدته للمثوبة سـكن قلبـه، واطمـأن قلبه بمشـاهدة العوض.
وإنما يشـتد عليه البلاء إذا غـاب عنه ملاحظة الثـواب على البلاء.
وقد تقوى ملاحظة الثواب حتى يستلذ بـالبلاء ويـراه نعمـه، كالدواء الكريه يلتذ به لملاحظة نفعه.
الثانيـــــة: طمأنينة الـــــروح إلى الطريق الموصل إلى المطلوب، ومعرفة عيوب النفس، وآفات الأعمال، ومعرفة المطلوب المقصود بالسير، وهو معرفة الأسماء والصفات، والإيمان والتوحيد.
فتسـكن النفس لـذلك، وتطمئن إليـه، كما يطمئن الجـائع الشديد الجوع إلى ما عنده من الطعام، ويسكن إليه قلبه.
الثالثـة: طمأنينة القلب إلى لطف الله عند شـهوده ذات

الله وأسـمائه وصـفاته وأفعالـه، فلـولا الطمأنينة لمحقه الشهود، فقد خرَّ موسى صلى الله عليه وسلم صـعقًا لمّا تجلّى ربُّـه للجبل.

وتدكدك الجبل وساخ في الأرض من تجليه سبحانه، وكذلك القلب السليم يرى الحق سبحانه وحده قائمًا بذاتـه، ويـرى كل شيء قائمًا به.

والله عزَّ وجلَّ قد فاوت بين قوى القلـوب أشد من تفـاوت قوى الأبدان.

والطمأنينة إلى الله سـبحانه حقيقة تـرد منه سـبحانه على قلب عبده، تجمعه عليه، وترد قلبه الشارد إليـه، حـتى كأنه جالس بين يديه، يسمع به، ويبصر به، ويتحرك بـه، ويبطش به.

فتسـري تلك الطمأنينة في نفسه وقلبه ومفاصـله، وقـواه الظـاهرة والباطنة تجـذب روحه إلى اللـه، ويلين جلـده ومفاصله وقلبه إلى خدمته والتقرب إليه.

ولا يحصل ذلك إلا بالله وبذكره، وهو كلامه الذي أنزله على رسوله كما قال سبحانه: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28)) [الرعد: 28].

وحقيقة الطمأنينة الـتي تصـير بها النفس مطمئنة:

أن تطمئن في بـاب معرفة أسـماء الله وصـفاته إلى خـبره الذي أخبر به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله.

فتتلقاه بالقبول والتسـليم والإذعـان، وانشـراح الصـدر لـه، وفـرح القلب بـه، فلا يـزال القلب في أعظم القلق والاضـطراب، حـتى يخالط الإيمـان بأسـماء الـرب وصـفاته وتوحيده وعلوه على عرشه، وتكلمه بالوحي، بشاشة قلبه.

فيطمئن إليه، ويفـرح بـه، ويلين له قلبـه، حـتى كأنه شـاهد الأمر كما أخـبرت به الرسل صـلوات الله وسـلامه عليهم أجمعين.

فلا يبـالي بعد ذلك بـأي مخـالف، فهـذه أول درجـات الطمأنينة.

ثم لا يزال يقوى كلما سمع آية متضمنة لصفة من صفات ربه، فهذه الطمأنينة أصل أصول الإيمان، التي قام عليها بناؤه.
ثم يطمئن إلى خبره بما بعد الموت من أمور البرزخ، وما بعدها من أهوال القيامة حتى كأنه يشاهد ذلك كله عيانًا.
وهذا حقيقة اليقين الذي وصف الله به أهل الإيمان بقوله: (وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) [البقرة: 4].
فلا يحصل الإيمان بالآخرة حتى يطمئن القلب إلى ما أخبر الله به عنها.
والطمأنينة إلى أسماء الرب تعالى وصفاته نوعان:
طمأنينة إلى الإيمان بها وإثباتها واعتقادها.. وطمأنينة إلى ما تقتضيه وتوجبه من آثار العبودية.
فالطمأنينة إلى القدر وإثباته والإيمان به، يقتضي الطمأنينة إلى مواضع الأقدار التي لم يؤمر العبد بدفعها ولا قدرة له على دفعها، فيسلم لها ويرضى بها، ولا يسخط ولا يشكو، ولا يضطرب إيمانه.
فلا يأسى على ما فاته، ولا يفرح بما آتاه ربه، لأن المصيبة فيه مقدرة قبل أن تصل إليه وقبل أن يخلق كما قال سبحانه: (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿11﴾) [التغابن: 11].
وهكذا سائر الصفات كالسمع والبصر، والمحبة والعلم، والرضا والغضب، فهذه طمأنينة الإيمان.
وأما طمأنينة الإحسان: فهي الطمأنينة إلى أمر الله امتثالاً وإخلاصًا ونصحًا، فلا يقدم على أمره إرادة ولا هوى ولا تقليدًا، فلا يسكن إلى شبهة تعارض خبره، ولا إلى شهوة تعارض أمره.
وعلامات هذه الطمأنينة:
أن يطمئن من قلق المعصية وانزعاجها، إلى سكون التوبة وحلاوتها وفرحتها، وكل عاصٍ في قلبه الخوف والقلق، ولكن سكر الشهوة والغفلة يواري عنه ذلك الخوف

والقلق.
ولكل شهوة سكر يزيد على سـكر الخمـر، وكـذلك الغضب له سكر أعظم من سكر الشراب.
وكـــذلك يطمئن من قلق الغفلة والإعـــراض، إلى ســـكون الإقبـــــال على الله وحلاوة ذكـــــره، وتعلق الـــــروح بحبه ومعرفته.
وإذا اطمأنت النفس وتــرحلت من الشك إلى اليقين.. ومن الجهل إلى العلم.. ومن الغفلة إلى الـــذكر.. فقد باشـــرت روح الطمأنينة.
وأصل ذلك كله ومنشـــؤه من اليقظـــة، فهي أول مفـــاتيح الخير، فإن الغافل عن الاستعداد للقاء ربه، والتزود لمعاده، بمنزلة النائم، بل أسوأ حالاً منه، كما قـال سـبحانه: (وَلَقَـدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِـيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُـوبٌ لَا يَفْقَهُـونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِـــرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آَذَانٌ لَا يَسْـــمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَـامِ بَـلْ هُمْ أَضَـلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَـافِلُونَ (179)) [الأعراف: 179].
اللهم: (رَبَّنَا آَمَنَّا بِمَا أَنْـــزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُـــولَ فَاكْتُبْنَا مَـــعَ الشَّاهِدِينَ (53)) [آل عمران: 53].

12- فقه سرور القلب[46]

قال الله تعالى: (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (58)) [يونس: 58].
وقال الله تعالى: (فَرِحِينَ بِمَا آَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (170)) [آل عمران: 170].
الله عزَّ وجلَّ أمر عباده بالفرح بفضله ورحمته، وذلك تابع للفرح والسرور بصاحب الفضل والرحمة.
فإن من فرح بما يصل إليه من جواد كريم، محسن بر، يكون فرحه بمن أوصل ذلك إليه أولى وأحرى.
والفرح: لذة تقع في القلب بإدراك المحبوب، ونيل المشتهى، والسلامة من المكروه.
فيتولد من ذلك حالة تسمى الفرح والسرور.
كما أن الحزن والغم من فقد المحبوب، وحصول المكروه، فيتولد من ذلك حالة تسمى الحزن والغم.
ولا شيء أحق أن يفرح العبد به من فضل الله ورحمته التي تتضمن الموعظة، وشفاء الصدور من أدواء الجهل والظلم، والغي والسفه، وهو أشد ألمًا لها من أدواء البدن، ويشتد ألمها به عند مفارقة الدنيا، فهناك يحضرها كل مؤلم محزن. وما آتاها من ربها من الهدى، الذي يتضمن ثلج الصدور باليقين، وطمأنينة القلب به، وسكون النفس إليه، فذلك خير من كل ما يجمع الناس من أعراض الدنيا وزينتها.
فهذا ليس بموضع فرح، لأنه عرضة للآفات، ووشيك

[46] - لقاءات الباب المفتوح - (ج 122 / ص 5) وفتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج 9 / ص 6258) والموسوعة الفقهية1-45 كاملة - (ج 2 / ص 7827) ومدارج السالكين - (ج 3 / ص 54) و مدارج السالكين - (ج 4 / ص 29) وموسوعة خطب المنبر - (ج 1 / ص 144) وموسوعة خطب المنبر - (ج 1 / ص 3885) وموسوعة فقه القلوب - (ج 3 / ص 44)

الزوال.
وقد جاء الفرح في القرآن على نوعين:
فرح مطلق.. وفرح مقيد.
فالمطلق جاء في الذم كقوله سبحانه عن قارون: (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76)) [القصص: 76].
والمقيد نوعان:
الأول: فرح مقيد بالدنيا، ينسي صاحبه فضل الله ورحمته فهو مذموم كما قال سبحانه: (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44)) [الأنعام: 44].
الثاني: فرح مقيد بفضل الله ورحمته، فهو محمود كالفرح بالله ورسوله، والفرح بالإيمان والسنة والقرآن كما قال سبحانه: (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (58)) [يونس: 58].
والفرق بين الفرح والاستبشار، أن الفرح بالمحبوب بعد حصوله، والاستبشار يكون بالمحبوب قبل حصوله، إذا كان على ثقة من حصوله كما قال سبحانه: (فَرِحِينَ بِمَا آَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (170)) [آل عمران: 170].
فالفرح أعلى وأعظم نعيم القلب ولذته وبهجته، والفرح والسرور نعيمه، والهم والحزن عذابه.
والسرور: اسم لاستبشار جامع يظهر أثره على الوجه، فإنه تبرق منه أسارير الوجه.
والاستبشار: مأخوذ من البشرى، والبشارة: أول خبر صادق سار، سميت بذلك لأنها تؤثر في بشرة الوجه بالنور والسرور.
والبشرى نوعان:
بشرى سارة.. وبشرى محزنة.
فالأولى: تكسب الوجه نضرة وبهجة.

والثانية: تكسبه سوادًا، وعبوسًا.
والبشــرى إذا أطلقت كــانت للســرور، وإذا قيــدت كــانت بحسب ما تقيد به من الأحوال.
والسرور على ثلاث مراتب:
الأولى: ســرور ذوق طعم الإيمــان، والإقبــال على اللــه، والأنس به، وحلاوة مناجاته، والتلذذ بعبادته.
ففي القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس باللــه، وفيه حــزن لا يذهبه إلا الســرور بمعرفة اللــه، وصــدق معاملتــه، وفيه قلق لا يســكنه إلا الالتجاء إليه، والفرار منه إليه.
وفيه نــيران حســرات لا يطفئها إلا الرضا بــأمره ونهيــه، والتسـليم لقضـائه وقـدره، وفيه فاقة لا يسـدها إلا محبتـه، والإنابة إليه، ودوام ذكره.
الثانية: سرور شهود العبد آلاء ربه ونعمه، وجماله وجلاله، فيقبل على الطاعــات مســرورًا، لأنه يراها غــذاءً لقلبــه، وسرورًا له، وقـرة عين في حقـه، ونعيمًا لروحـه، يلتذ بهـا، ويتنعم بملابســـــتها، أعظم مما يتنعم بملابسة الطعـــــام والشراب.
فاللذات القلبية الروحانية أقوى وأتم من اللذات الجسـمية، فلا يجد في العبـادات كلفـة، بل يسر بهـا، ويتلـذذ بتكرارها والإكثار منها.
الثالثـة: سـرور سـماع الإجابـة، وهو سـماع انقيـاد القلب والـروح والجـوارح لما سـمعته الآذان، ويزيل بقايا الوحشة التي سببها ترك الانقياد التام.
وهو إذا دعا ربه سـبحانه فسـمع ربه دعـاءه سـماع إجابـة، وأعطاه ما سأله أو أعطاه خيرًا منه، حصل له بذلك سـرور يمحو من قلبه آثار ما كان يجده من وحشة البعد.
فللعطاء والإجابة سرور وأنس وحلاوة في قلب العبد.
وللمنع وحشة ومرارة وضيق.
والفرح أعلى أنواع نعيم القلب ولذته وبهجته، ولا لذة له ولا سرور إلا بأن يكون ربه معبوده ومحبوبه ومطلوبه.
والفــرح بالشــيء فــوق الرضا بــه، فــإن الرضا طمأنينة

وسكون وانشراح، والفـرح لـذة وبهجة وسـرور، فكل فـرح راضٍ، وليس كل راضٍ فرحًا.

والفرح صفة كمـال، ولهـذا يوصف الـرب جل جلاله بـأعلى أنواعه وأكملهــا، كفرحه ســبحانه بتوبة التــائب أعظم من فرحة الواجد لراحلتــه، الــتي عليها طعامه وشـــرابه، في الأرض المهلكة، بعد فقده لهـا، كما قـال النـبي صـلى الله عليه وسلم : « لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ فِى أَرْضٍ دَوِيَّةٍ مَهْلَكَـةٍ مَعَـهُ رَاحِلَتُـهُ عَلَيْهَا طَعَامُـهُ وَشَـرَابُهُ فَنَامَ فَاسْـتَيْقَظَ وَقَـدْ ذَهَبَتْ فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَـهُ الْعَطَشُ ثُمَّ قَـالَ أَرْجِـعُ إِلَى مَكَـانِى الَّذِى كُنْتُ فِيـهِ فَأَنَـامُ حَتَّى أَمُـوتَ. فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ فَاسْـتَيْقَظَ وَعِنْـدَهُ رَاحِلَتُـهُ وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَـرَابُهُ فَاللَّهُ أَشَـدُّ فَرَحًا بِتَوْبَـةِ الْعَبْـدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ ». **متفق عليه**[47].

والفرق بين فرح القلب، وفرح النفس ظاهر.

فإن الفرح بالله ومعرفته ومحبته ومحبة كلامه ودينه من القلب كما قال الله سبحانه: (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿58﴾) [يونس: 58].

فهذا فرح القلب وهو من الإيمان، ويثاب عليه العبد.

والفرح يكون على قدر المحبة.. وعلى قدر المعرفة.

فــالفرح بالله وأســمائه وصــفاته ورســوله وســنته وكلامه محض الإيمان وصـفوته ولبـه، وله عبودية عجيبـة، وأثر في القلب لا يعبر عنه، والفرح بذلك أفضل ما يعطاه العبـد، بل هو أجلّ عطاياه.

والفرح في الآخرة بالله ولقائه، بحسب الفـرح بـه، ومحبته في الدنيا.

فهذا شأن فرح القلب.

وله فرح آخر، وهو فرحه بما من الله به عليه من معاملتــه، والإخلاص له، والتوكل عليه، والثقة به، وحسن عبادته.

وله فرحة أخرى عظيمة الشـأن، وهي الفرحة الـتي تحصل له بالتوبـة، فـإن لها فرحة عجيبة لا نسـبة لفرحة المعصـية

---

[47](?) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (6309)، ومسلم برقم (2747)، واللفظ له.

إليها البتة.
وسر هذا الفرح، إنما يعلمه من علم سر فرح الـرب تعـالى بتوبة عبده أشد من فرح العبد الـذي أضل راحلته في أرض فلاة ثم وجدها.
وفوق ذلك فرحة أعظم من هذا كله، وهي فرحته عند مفارقته الدنيا إلى الله، إذا أرسل الله إليه الملائكة فبشروه بلقائه، وقال له ملك الموت: أخرجي أيتها الروح الطيبة كانت في الجسد الطيب، أبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، فترجع الروح الطيبة إلى ربها راضية مرضية: (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿27﴾ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿28﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿29﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿30﴾) [الفجر: 27-30].
ومن بعدها أنواع من الفرح:
منهـا: صـلاة الملائكة الـذين بين السـماء والأرض على روحه، وفتح أبواب السماء لها، وصلاة ملائكة السماء عليها، وكيف يقـدر فرحهـا، وقد اسـتؤذن لها على ربها ووليها فوقفت بين يديه، وأذن لها بالسجود فسجدت.
ثم يـذهب إلى الجنة فـيرى مقعـده فيهـا، وما أعد الله لـه، ويلقى أهله وأصحابه فيستبشرون به ويفرحون.
وهـذا كله قبل الفـرح الأكـبر يـوم حشر الأجسـاد: بجلـوس المـؤمن في ظل العـرش.. وشـربه من الحـوض.. وأخـذه كتابه بيمينه.. وثقل ميزانه.. وبياض وجهـه.. وإعطائه النـور التام.. وقطعه جسر جهنم.. وانتهائه إلى باب الجنة.
وقد أزلفت له في الموقف كما قـال سـبحانه: (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿31﴾) [ق: 31].
وتلقاه خزنتها بالسلام والترحيب والبشارة والإكرام.
وقدومه عل منازله وقصوره وأزواجه.
والنعيم الـذي لم تـره عين، ولم تسـمعه أذن، ولم يخطر على قلب بشر.
فلله ما أعظم هـذا النعيم، وما أشد فـرح العبد بـه.. وما أخسر من أضاعه.
وبعد ذلك فـرح آخر لا يقـدر قـدره، تتلاشى هـذه الأفـراح

والمســرات عنــده، وهو رؤية المؤمــنين لــربهم، وســلامه عليهم، ورضــاه عنهم، وتكليمه إيــاهم كما قــال ســبحانه: (وُجُـــوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِـــرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَــاظِرَةٌ (23)) [القيامة: 22، 23].

13 - فقه خشوع القلب [48]

قال الله تعالى: (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (16)) [الحديد: 16].

وقال الله تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2)) [المؤمنون: 1، 2].

الله تبارك وتعالى هو الواحد القهار، ذو الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة، الذي خضعت رقاب العباد لعظمته، وخشعت الأصوات لهيبته، وذل الأقوياء لعزته، وافتقرت جميع الخلائق إليه.

والخشوع: قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل.

ومحله القلب، وثمرته على الجوارح، فإن حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن، والكمال الخارجي ثمرة الكمال الداخلي.

فالخشوع معنى يلتئم من:

التعظيم للرب.. والمحبة له.. والذل له.. والانكسار بين يديه.

والخشوع أربعة أنواع:

الأول: اتضاع القلب والجوارح وانكسارها لنظر الرب إليها، وهو مقام الرب على عبده بالإطلاع والقدرة والربوبية، فخوفه من هذا المقام يوجب له خشوع القلب لا محالة، وكلما كان أشد استحضارًا لعظمة الرب وجلاله وجماله وإحسانه كان أشد خشوعًا.

الثاني: التذلل للأمر، بتلقيه بذلة القبول والانقياد

---

[48] - مجموع الفتاوى - (ج 7 / ص 29) ومجموع الفتاوى - (ج 11 / ص 590) وفتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج 4 / ص 3456) وفتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج 5 / ص 387) والرسالة القشيرية - (ج 1 / ص 68) وقوت القلوب - (ج 1 / ص 327) وبريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية - (ج 4 / ص 215) ومدارج السالكين - (ج 3 / ص 31) و موسوعة خطب المنبر - (ج 1 / ص 257) وموسوعة فقه القلوب - (ج 3 / ص 48)

والامتثــال، مع إظهــار الضــعف والافتقــار إلى الهداية للأمر قبل الفعل، والإعانة عليه حال الفعل، وقبوله بعد الفعل.
والاستسلام للحكم القدري، بعدم تلقيه بالتسـخط والكراهة والاعتراض.
الثالث: ترقب آفات النفس وآفـات العمـل، وذلك بانتظـار ظهور نقائص نفسك وعملك وعيوبهما لك.
فـذلك يجعل القلب خاشـعًا لمطالعة عيـوب نفسه وأعماله ونقائصـــهما، من الكـــبر والعجب والريـــاء، وقلة اليقين، وتشتت النية، وعدم إيقـاع العمل على الوجه الـذي ترضـاه لربك، ورؤية فضل كل ذي فضل عليك.
وذلك بأداء حقوق الناس، وعدم مطالبتهم بحقـوق نفسـك، وتعترف بفضلهم، وتنسى فضل نفسك عليهم.
الرابع: ضبط النفس بالذل والانكسار عن البسط والإدلال الـــذي تقتضـــيه المكاشـــفة، وأن يخفى أحواله عن الخلق جهده، كخشوعه وذله وانكسـاره، لئلا يراها النـاس، فيعجبه اطلاعهم عليها، ورؤيتهم لها، فيفسد عليه وقته وقلبه وحاله مع اللـــه، فلا شـــيء أنفع للصـــادق من التحقق بالمســكنة والفاقة والذل.
وأن لا يرى الفضل والإحسان إلا من الله، فهو المــانّ به بلا سبب منك. والشهقة التي تعرض أحيانًا عند سـماع القـرآن أو عند ذكر الله لها أسباب منها:
أن يلـــوح له عند ســـماع القـــرآن والـــذكر درجة ليست له فيرتاح لها، فيشهق، فهذه شهقة شوق.
أو يلوح له ذنب ارتكبه فيشهق خوفًا، فهذه شهقة خشية.
أو يلـــوح له نقص في العمل لا يقـــدر على دفعه فيحـــدث حزنًا، فيشهق شهقة حزن.
أو يلـوح له كمـال محبوبـه، ويـرى الطريق إليه مســدودة، فيشهق شهقة أسف.
أو يذكره ذلك بمحبوبه، ويرى الطريق إليه مفتوحًا، فيشهق شهقة فرح وسرور.
أو يذكره ذلك جلال ربه وجماله، وإحسـانه وإكرامـه، فـيرى الخلائق كلها تحت قهره، مدينين لفضله وإحسـانه، فيشـهق

لما يــرى من كمــال عظمة الــرب، وجميل إحســانه إلى عبـاده: (إِنَّ الْمُصَّـدِّقِينَ وَالْمُصَّـدِّقَاتِ وَأَقْرَضُـوا اللَّهَ قَرْضًـا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿18﴾) [الحديد: 16].
إنه عتـاب مـؤثر من المـولى الكـريم الـرحيم، واسـتبطاء للاسـتجابة الكاملة من تلك القلـوب الـتي أفـاض عليها من فضله.
فبعث إليها الرسول يدعوها إلى الإيمان بربها، وأنــزل عليها الآيات البينات، ليخرجها من الظلمات إلى النور.
وأراها من آياته في الكون والخلق ما يبصر ويحذر.
إنه عتــــاب فيه الـــــود، وفيه الحض، وفيه الاستجاشة إلى الشـعور بجلال اللـه، والخشـوع لـذكره، وتلقي ما نـزل من الحق بما يليق بجلال الله من الخشـــــــــــية والطاعة والاستسلام، مع رائحة التنديد والاستبطاء في السؤال.
وإلى جـانب الحض والاسـتبطاء، تحـذير من عاقبة التبـاطؤ والتقــاعس عن الاســتجابة، وبيــان لما يغشى القلــوب من الصـدأ حين يمتد بها الـزمن بـدون جلاء، وما تنتهي إليه من القسوة بعد اللين، حين تغفل عن ذكر اللــه، وحين لا تخشع للحق.
وليس وراء قسوة القلوب إلا الفسق والخروج: (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿16﴾) [الحديد: 16].
إن القلب البشري سريع التقلب، كثـير النسـيان، وفيه نـور الفطرة، فإذا طال عليه الأمد بلا تذكير ولا تذكر تبلد وقسا، وأظلم وأعتم، فلا بــدَّ من تــذكير هــذا القلب حــتى يــذكر ويخشع.
ولا بدَّ من الطرق عليه حتى يشف ويرق، ولا بدَّ من اليقظة الدائمة كي لا يصيبه التبلد والقساوة.
ولكن لا بأس من قلب خمد وجمد، وقسا وتبلـد، فإنه يمكن أن تدب فيه الحياة، وأن يشرق فيه النور، وأن يخشع لـذكر الله.
فالله عــزَّ وجــلَّ يحـيي الأرض بعد موتهـا، فـتزخر بالنبـات

والأزهار، وتخرج الحبـوب والثمـار، وتصـبح الأرض مخضـرة بعد أن كــانت مغــبرة: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَـامِ مَا نَشَــاءُ إِلَى أَجَـلٍ مُسَــمًّى ثُمَّ نُخْـرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُــوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَـوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُـرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُـرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَــاءَ اهْتَـزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُـلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ 5) [الحج: 5].

وكذلك القلوب حين يشاء الله، وفي هـذا القـرآن ما يحـيي القلـوب بالإيمـان، كما تحيا الأرض بالمـاء: (اِعْلَمُـوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُـونَ 17) [الحديد: 17].

والذي أحيا الأرض بعد موتها، قـادر على أن يحـيي الأمـوات بعد موتهم، فيجازيهم بأعمالهم.

والــذي أحيا الأرض بعد موتها بمــاء المطــر، قــادر على أن يحيي القلوب الميتة بما أنزله من الحق على رسوله.

فمتى يجيء الـوقت الـذي تلين فيه القلـوب، وتخشع لـذكر الله الذي هو القرآن؟.. ومتى تنقاد لأوامره وزواجره؟.

ومتى يخشع القلب لربه، وما أنزله من الكتاب والحكمة؟.

ومــتى نـترقى من ســمعنا وعصــينا إلى ســمعنا وأطعنــا؟.

ونقدم أوامر الرب على محبوبـات النفس؟.. ونـؤثر الحيـاة العالية على الشهوات الفانية؟.

قـال تعـالى:(إِنَّمَا كَـانَ قَـوْلَ الْمُـؤْمِنِينَ إِذَا دُعُـوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُـولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُـوا سَـمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ 51) [النور: 51]

ألا ما أحــوج القلــوب في كل وقت إلى أن تــذكر بما أنزله اللـــه، وتنطق بالحكمة والموعظـــة، لئلا تحصل لها الغفلة والقســوة وجمــود العين: (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُــونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَـذَكِّرْ بِـالْقُرْآنِ مَنْ يَخَـافُ وَعِيــدِ 45) [ق: 45].

14- فقه حياء القلب [49]

قال الله تعالى: (أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى 14) [العلق: 14].

وقال الله تعالى: (يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا 1) [النساء: 1].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أو بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لا إِلهَ إِلاّ اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِماطَةُ الأذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ » **أخرجه مسلم**[50]**.**

الحيـــاء: رؤية الآلاء، ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء.

والحياء خلق عظيم لا يأتي إلا بخير، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئًا يكرهه عرف في وجهه صلى الله عليه وسلم .

وحقيقة الحياء: خلق يبعث على ترك القبائح، ويمنع من التفريط في الطاعات والمحاسن، يتولد من امتزاج التعظيم بالمودة.

وعلى حسب قوة حياة القلب تكون فيه قوة خلق الحياء، وقلة الحياء من موت القلب والروح.

ومن استحى من الله مطيعًا، استحى الله منه وهو مذنب، لكرامته عليه، فيستحي أن يرى من وليه ومن يكرم عليه ما يشينه عنده.

والحياء خلق جميل، خص الله به الإنسان دون جميع الحيوان.

وهو أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدرًا، وأكثرها نفعًا.

---

[49] - موسوعة خطب المنبر - (ج 1 / ص 780) وموسوعة فقه القلوب - (ج 3 / ص 51)

[50](?) أخرجه مسلم برقم (35).

بل هو خاصة الإنســـانية، فمن لا حيـــاء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة.
ولولا خلق الحيـاء لم يقر الضـيف.. ولم يـوف بالعهـد.. ولم تؤد أمانـة.. ولم تقضَ لأحد حاجـة.. ولا سـتر له عـورة.. ولا آثر الجميل على القــبيح من الأقــوال والأعمــال.. ولا امتنع من فاحشة.
وكثـير من النـاس لـولا الحيـاء الـذي فيه لم يـؤد شـيئًا من الأمور المفروضة عليه، ولم يرع لمخلوق حقًا، ولم يصل له رحمًا، ولا بر له والدًا.
فإن الباعث على هذه الخصال الحميدة:
إما ديني: وهو رجاء عاقبتها الحميدة.
وإما دنيوي علوي: وهو حياء فاعلها من الخلق.
فلــــولا الحيــــاء إما من الخـــالق أو من الخلائق لم يفعلها صاحبها.
قــال النــبي صــلى الله عليه وســلم : **«إِنَّ مِــمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلامِ النُّبُوَّةِ: إِذَا لَـمْ تَسْتَـحْيِ فَاصْـنَعْ مَا شِئْتَ» أخرجه البخاري[51].**
فالرادع عن فعل القــبيح إنما هو الحيــاء، فمن لم يسـتح فإنه يصـنع ما يشـاء، ولكل إنسـان آمـران وزاجران:
آمر وزاجر من جهة الحيـــاء.. وآمر وزاجر من جهة الهـــوى والطبيعة.
فمن لم يطع آمر الحياء وزاجره، أطاع آمر الهوى والشهوة كما قال سبحانه: (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿59﴾) [مريم: 59].
وحياء البشر على عشرة أوجه:
حيـاء جنايـة.. وحيـاء تقصـير.. وحيـاء إجلال.. وعلى حسب معرفة العبد بربه يكـون حيـاؤه منـه.. وحيـاء كـرم.. وحيـاء حشمة.. وحياء استصغار للنفس واحتقار لها.. وحياء محبة.. وهو حياء المحب من محبوبه.
وحيـــاء عبوديـــة.. وهو حيـــاء ممـــتزج من محبة وخـــوف،

---

[51](?) أخرجه البخاري برقم (3484).

ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده سبحانه، وأن قدره أعلى وأجل منها، فعبوديته له توجب استحياءه منه لا محالة.
وحياء الشرف والعزة.. وهو حياء النفس العظيمة الكبيرة، إذا صدر منها ما هو دون قدرها من بذل أو عطاء أو إحسان، فإنه يستحي مع بذله حياء شرف نفس وعزة.
وحياء المرء من نفسه.. وهو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص، وقناعتها بالدون، فيجد نفسه مستحيًا من نفسه.
وهذا أكمل ما يكون من الحياء، فإن العبد إذا استحى من نفسه، فهو بأن يستحي من غيره أجدر.
والحياء على ثلاث درجات:
الدرجة الأولى: حياء يتولد من علم العبد بنظر الحق إليه، وذلك يجذبه إلى احتمال أعباء الطاعة، ويحمله على استقباح الجناية، وأرفع منه درجة الاستقباح الحاصل عن المحبة، فاستقباح المحب أتم من استقباح الخائف.
وهذا الحياء يكف العبد أن يشتكي لغير الله، فيكون قد شكى الله إلى خلقه.
الثانية: حياء يتولد من النظر في علم القرب من الله، فيدعوه إلى ركوب المحبة، والله قريب من أوليائه وأهل طاعته، وكلما ازداد العبد حبًا ازداد قربًا.
والقرب نوعان:
قربه سبحانه من داعيه بالإجابة.. وقربه من عابده بالإثابة، وهؤلاء هم أهل طاعته.
فالأول: كقوله سبحانه: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿186﴾) [البقرة: 186].
والثاني: كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ» أخرجه مسلم**[52]**.**
الثالثة: حياء يتولد من انجذاب الروح والقلب من

---

[52](?) أخرجه مسلم برقم (482).

الكائنات، وعكوفه على رب البريـات، فهو في حضـرة قربه مشاهدًا لربه، وإذا وصل القلب إليه غشــيته الهيبة والإجلال لمولاه.
فلا يخطر بباله في تلك الحـــال ســـوى الله وحــــده، فهو سـبحانه ليس له غاية ولا نهاية لا في وجـوده، ولا في مزيد جوده.
فهو الأول الــذي ليس قبله شــيء.. وهو الآخر الــذي ليس بعـده شـيء.. ولا نهاية لحمـده وعطائـه.. ولا نهاية لعظمته وجلاله.
وكلما ازداد العبد شــــكرًا زاده الله فضــــلاً، وكلما ازداد له طاعة زاده لمجده وكرمه مثوبة.
وأهل الجنة في مزيد دائم بلا انتهاء، فإن نعيمهم متصل بمن لا نهاية لفضله ولا لعطائه، ولا لمزيده ولا لأوصافه، فتبارك الله رب العالمين، الرزاق ذو القوة المتين: (إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴿54﴾) [ص: 54].
اللهم إنا نســألك الجنة وما قــرب إليها من قــول وعمــل.. ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل.

15- **أسباب مرض القلب والبدن**

قال الله تعالى: (يَا بَنِي آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (31)) [الأعراف: 31].

وقال الله تعالى: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (179)) [الأعراف: 179].

مرض البدن: خروجه عن اعتداله الطبيعي لفساد يعرض له، يفسد به إدراكه، وحركته الطبيعية.

فإما أن يذهب إدراكه بالكلية كالعمى والصمم، وإما أن ينقص إدراكه لضعف في الآلات، وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه كما يدرك الحلو مرًا، والطيب خبيثًا.

وأما فساد حركته الطبيعية فمثل أن تضعف قوته الهاضمة، أو الماسكة، أو الدافعة، أو الجاذبة.

فيحصل له من الألم بحسب خروجه عن الاعتدال، وسبب هذا الخروج عن الاعتدال:

إما فساد في الكمية.. وإما فساد في الكيفية.

فالأول: إما لنقص في المادة فيحتاج إلى زيادتها، وإما لزيادة فيها فيحتاج إلى نقصها.

والثاني: إما بزيادة الحرارة، أو البرودة، أو الرطوبة، أو اليبوسة، أو نقصانها عن القدر الطبيعي.

فيداوى بمقتضى ذلك.

والصحة تقوم على ثلاثة أصول:

حفظ القوة.. والحمية عن المؤذي.. واستفراغ المواد الفاسدة.

ونظر الطبيب دائر على هذه الأصول الثلاثة.

وإذا عُرف هذا فالقلب محتاج إلى ما يحفظ عليه قوته.. وهو الإيمان والطاعات.

ومحتاج إلى حمية من الضار المؤذي.. وذلك باجتناب الآثام

والمعاصي.. وأنواع المخالفات.
ومحتاج إلى استفراغه من كل مادة فاسدة تعرض له، وذلك بالتوبة النصوح ولزوم الاستغفار.
ومرض القلب: هو نوع فساد يحصل له، يفسد به تصوره للحق، وإرادته له، فلا يرى الحق حقًا، أو يراه خلاف ما هو عليه، أو ينقص إدراكه له، وتفسد به إرادته له.
فيبغض الحق النافع، أو يحب الباطل الضار، أو يجتمعان له وهو الغالب.
ولما كان البدن المريض، يؤذيه ما لا يؤذي الصحيح، من يسير الحر والبرد والحركة، فكذلك القلب إذا كان فيه مرض آذاه أدنى شيء من الشبهة أو الشهوة، وحتى لا يقوى على دفعها إذا وردا عليه.
والقلب الصحيح يطرقه أضعاف ذلك فيدفعه بقوته وصحته.
وإذا أظلم القلب رأى المخلوق يفعل، وإذا استنار القلب بالإيمان رأى الفاعل الحقيقي هو الله وحده.
وبقدر قوة اليقين على عظمة الله، تكون قوة الإيمان، ثم تكون قوة الأعمال، ثم حصول البركات.
وأعظم أسباب مرض القلب هي:
الغفلة عن الله.. والغفلة عن أوامر الله.. والغفلة عن اليوم الآخر.
فالغفلة عن الله سببها قلة ذكره، وتعلق القلب بغيره من المحبوبات.
والغفلة عن أوامر الله سببها عدم الرغبة فيها، وإيثار الشهوات عليها، وتعلق القلب بالهوى والشيطان.
والغفلة عن اليوم الآخر سببها قلة المذكر بالموت والحشر، والجنة والنار.
وإذا تمت الغفلة بأركانها الثلاثة.. ثقلت على العبد الطاعات.. وشمرت النفس للمعاصي.. وآثرت الدنيا على الآخرة.. وقدمت الشهوات على أوامر الله.. وتجاوزت العدل إلى الإسراف.. وقدمت مراد النفس على مراد الرب كما قال سبحانه: (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿59﴾) [مريم:

.[59

فغـذاء البـدن بالطيبـات، وغـذاء القلب بالإيمـان والأعمـال الصالحة.

ولما كانت أعمال القلب، وأعمـال البـدن مسـتمرة، فلا بـدَّ من الغذاء اليومي لهما.

فالبدن يصح على أكل الطيبات.. ويعتل يأكل الخبائث.

فكذلك القلب يزكو ويصح بمعرفة الطيب من القـول.. وهو معرفة الله بأسـمائه وصـفاته.. ومعرفة جلاله وعظمتـه.. ومعرفة نعمه وآلائه.. ومعرفة وعده ووعيده.. ومعرفة دينه وشرعه.

ويفسد القلب بالجهل بـــذلك، واتبـــاع الهـــوى، وطاعة الشيطان، والإعراض عن الله ورسوله ودينه.

16- **مفسدات القلب**

قال الله تعالى: (لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَـرَ فَتَقْعُـدَ مَـذْمُومًا مَخْذُولًا 22) [الإسراء: 22].

وقال الله تعالى: (وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِـهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَـرَ اللَّهُ بِـهِ أَنْ يُوصَـلَ وَيُفْسِـدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ 25) [الرعد: 25].

مفسدات القلوب كثيرة ويجمعها خمسة أمور:

الأول: كثرة مخالطة الناس:

فامتلاء القلب من دخان أنفاس بني آدم حتى يسود، يوجب له تشتتًا وتفرقًا، وهمًا وغمًا، وإضاعة مصـالحه، والاشـتغال عن مصـــالحه بهم، وتقسم فكـــره في أودية مطـــالبهم ومجالسهم.

فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة؟.

وكم جلبت خلطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة؟.

وكل المشـتركين في تحصـيل غـرض، يتـوادون ما دامـوا متسـاعدين على حصـوله، فـإذا انقطع ذلك الغـرض، أعقب ندامة وحزنًا، وانقلبت تلك المودة بغضًـا، ولعنة من بعضـهم لبعض إلا ما شاء الله.

ومحكم القول في أمر الخلطة:

أن يخالط الإنسـان الخلق في الخـير كالجمعة والجماعـة.. والأعيــاد والحج.. والــدعوة والأمر بــالمعروف والنهي عن المنكــر.. والعلم والجهــاد.. والنصــيحة وبــذل المعــروف.. ويعتزلهم في الشر.. وفضول المباحات.

فـــإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في الشـــر، فليحـــذر أن يوافقهم، وليصبر على أذاهم، فإنهم لا بد أن يؤذوه، والصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة.

وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في فضـــول المباحـــات، فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس إلى مجلس طاعة لله إن أمكنـــه، فـــإن عجز عن ذلك فليسل قلبه من بينهم كسل الشعرة من العجين.

وليكن فيهم حاضـــرًا غائبًـــا، قريبًا بعيـــدًا، ينظر إليهم ولا

يبصــرهم، ويســمع كلامهم ولا يعيــه، لأنه قد أخذ قلبه من بينهم، ورقى به إلى الملأ الأعلى، مع الأرواح العلوية الزكية، ولا ينال هذا إلا بتوفيق الله وعونه.

المفسد الثاني: ركوبه بحر التمني.

وهو بحر لا ســاحل لــه، وهو البحر الــذي يركبه مفــاليس العــالم، وبضـــاعة ركابه مواعيد الشـــيطان، والخيـــالات، والأمــاني الكاذبــة، وتلك بضــاعة كل نفس مهينة خسيسة سفلية.

والناس متفاوتون في ذلك، وكل بحسب حاله:

فمِن متمَنٍّ للقـــدرة والســـلطان.. وللضـــرب في الأرض.. والتطــواف في البلــدان.. أو متمنٍّ للأمــوال والأثمــان.. أو للنسوة والمردان.. أو للعب واللهو.. أو للشهوات واللذات.

وصاحب الهمة العاليــة، أمانيه تحــوم حــول العلم والإيمــان، والعمل الذي يقربه إلى الله، ويكون سبباً للفوز بالجنة.

فــالقلوب جوالة منها ما يطــوف حــول العــرش.. ومنها ما يطوف حول الحش.

والــذي يتمــنى الخــير، ربما جعل الله أجــره كــأجر فاعلــه، كالقائل: لو أن لي مــالاً لعملت فيه بعمل فلان الــذي يتقى الله في ماله، ويصل فيه رحمه.

وكما تمنى النبي صــلى الله عليه وســلم أن يكــون متمتعًا وقد قرن، فأعطاه الله ثواب القــران بفعلــه، وثــواب التمتع الذي تمناه بأمنيته، فجمع له بين الأجرين، والله غني كريم.

الثالث: التعلق بغير الله تبارك وتعالى.

وهـــذا أعظم مفســـدات القلب على الإطلاق.. فليس عليه أضر من ذلــك.. ولا أقطع له عن مصــالحه وســعادته منــه.. فليحذره العبد.

فإنه إذا تعلق بغـــير الله وكله الله إلى ما تعلق بـــه، وخذله من جهة ما تعلق بــه، وفاته تحصــيل مقصــوده من الله عــزَّ وجلَّ بتعلقه بغيره، والتفاته إلى ما سواه.

فهو لا على نصـــيبه من الله حصـــل، ولا إلى ما أمله ممن تعلق به وصل.

فأعظم الناس خذلانًا من تعلق بغير الله.

وأساس الشرك وقاعدته التي بني عليها التعلق بغـير اللـه، وصاحب ذلك مذموم مخـذول كما قـال سـبحانه: (لَا تَجْعَـلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (22)) [الإسراء: 22].

الرابع: الطعام.

والمفسد للقلب من الطعام نوعان:

أحدهما: ما يفسده لعينه وذاته كالمحرمات وهي نوعان:

محرم لحق الله كالميتة والدم ولحم الخنزير، وكل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير.

ومحرم لحق العباد كالمسروق والمغصوب والمنهـوب، وما أخذ بغير رضا صاحبه، إما قهرًا، وإما حيلة.

الثـاني: ما يفسـده بقـدره وتعـدي حـده كالإسـراف في الحلال، والشـبع المفـرط، فإنه يشـغله عن الطاعـات، ويشـغله بمزاولة مؤونة البطنة حـتى يظفر بهـا، فـإذا ظفر بهـا، شـغله بمزاولة تصـريفها والتـأذي بثقلهـا، وقـوي عليه مـواد الشـهوة، ووسع عليه طـرق مجـاري الشـيطان، والشـيطان يجـري من ابن آدم مجـرى الـدم، فكـثرة الأكل يوسع طرق الشيطان في الإنسان، والصوم يضيق مجاريه، ويسد عليه طرقه.

الخامس: كثرة النوم:

فكثرة النـوم تميت القلب، وتثقل البـدن، وتضـيع الأوقـات، وتورث كثرة الغفلة والكسل.

والنوم درجات، فمنه المكروه جدًا، ومنه الضار غـير النـافع للبدن.

وأنفع النوم: ما كـان عند شـدة الحاجة إليـه، ونـوم أول الليل أنفع وأحمد من آخـره، ونـوم وسط النهـار أنفع من طرفيه.

وكلما قرب النوم من الطرفين قل نفعه، وكـثر ضـرره، ولا سيما نوم العصر، والنوم أول النهار إلا لسهران.

ويكره النوم بين صلاة الصـبح وطلـوع الشـمس، فإنه وقت غنيمـة، ووقت نـزول الأرزاق والبركـات، وأول النهـار ومفتاحه، ومنه ينشأ النهار.

وأعـــدل النـــوم وأنفعه نـــوم نصف الليل الأول، وسدسه الأخير، وهو مقدار ثمان ساعات.

وهذا أعدل النوم عند الأطباء، وما زاد عليـه، أو نقص منـه، أثر عندهم في الطبيعة.

ومن النـوم الـذي لا ينفـع، النـوم أول الليل عقيب غـروب الشمس، وهو مكروه شرعًا وطبعًا.

وكما أن كثرة النوم مورثة لهذه الآفـات، فمدافعته وهجـره مورث لآفـات عظـام، من سـوء المـزاج ويبسـه، وانحـراف النفس، وجفــاف الرطوبــات المعينة على الفهم والعمـــل، ويورث أمراضًـا متلفة لا ينتفع صـاحبها بقلبه ولا بدنه معهـا، وما قام الوجود إلا بالعدل.

وشـــــياطين الإنس والجن يقتحمـــــون النفس البشرية بسلاحين:

أحدهما: سلاح الشهوات، لإفساد سلوكه فيغوى: (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿59﴾) [مريم: 59].

الثاني: سلاح الشبهات، لإفسـاد فكـره فيضـل: (هُـوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَــرُ مُتَشَـابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْـغٌ فَيَتَّبِعُـونَ مَا تَشَـابَهَ مِنْـهُ ابْتِغَـاءَ الْفِتْنَـةِ وَابْتِغَـاءَ تَأْوِيلِـهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَـهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْـدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿7﴾) [آل عمران: 7].

وقد حث الله المؤمـــنين على مجاهـــدة هـــؤلاء الأعداء بسلاحين أمضى وأقوى:

أحــدهما: ســلاح الصــبر، وبه يجتث شــجرة الشــهوات والأهواء.

الثاني: اليقين الذي يحطم الشبهات والأوهام كما قال سبحانه: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿24﴾) [السجدة: 24].

والـذنوب والخطايـا، والمعاصي والسـيئات، تـوجب للقلب حرارة ونجاسة وضعفًا، فـيرتخي القلب، وتضـطرم فيه نـار الشهوة وتنجسه.

فالخطايا والــذنوب للقلب بمنزلة الحطب الــذي يمد النــار ويوقدها.
ولهذا كلما كـثرت الخطايا اشـتدت نـار القلب، وضـعف عن الطاعة.
والماء يغسل الخبث، ويطفئ النار.
فإن كان باردًا أورث الجسم صلابة وقوة، فإن كان معه ثلج وبرد كان أقـوى في التبريد وصـلابة الجسم وشـدته، فكـان أذهب لأثر الخطايا.
فالنجاسة التي تزول بالماء هي ومزيلها حسيان.
وأثر الخطايا الــتي تــزول بالتوبة والاســتغفار هي ومزيلها معنويان، وصلاح القلب ونعيمه وحياته لا يتم إلا بهذا.. وهـذا كما قال الله تبـارك وتعـالى: (وَيَسْـأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُـلْ هُـوَ أَذًى فَـاعْتَزِلُوا النِّسَـاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُـوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَـإِذَا تَطَهَّرْنَ فَـأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَـرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ 222) [البقرة: 222].
وقــال النــبي صــلى الله عليه وســلم : « اللَّهُمَّ بَاعِـدْ بَيْنِى وَبَيْنَ خَطَايَـاىَ كَمَا بَاعَـدْتَ بَيْنَ الْمَشْـرِقِ وَالْمَغْـرِبِ ، اللَّهُمَّ نَقِّنِى مِنَ الْخَطَايَا كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الــــــدَّنَسِ ، اللَّهُمَّ اغْسِــلْ خَطَايَــاىَ بِالْمَــاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَــرَدِ » . **متفق عليه**[53].
وهذا يدل على شـدة حاجة البـدن والقلب إلى ما يطهرهما ويبردهما ويقويهما.
وكما أن النجو يثقل البدن ويؤذيه باحتباسه، فكذلك الذنوب تثقل القلب وتؤذيه باحتباسها فيه.
فهما مؤذيان مضـران بالبـدن والقلب، وخروجهما فيه راحة البدن والقلب.
و عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ صُهَيْبٍ قَالَ سَـمِعْتُ أَنَسًـا يَقُـولُ كَـانَ النَّبِىُّ - صلى الله عليه وسلم - إِذَا دَخَلَ الْخَلاَءَ قَالَ « اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخُبُثِ وَالْخَبَائِثِ » . **متفق عليه**[54].
فالماء والغسل لإزالة الأوسـاخ والأدران عن البـدن، والتوبة

---

[53](?) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (744)، ومسلم برقم (598).
[54](?) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (142)، ومسلم برقم (375).

والاستغفار لإزالة الآثام والذنوب التي تراكمت على القلب.
فالأول به جمال الظاهر، والثاني به جمال الباطن والظاهر.

17- مداخل الشيطان إلى القلب[55]

قال الله تعالى: (قَـالَ فَبِمَا أَغْـوَيْتَنِي لَأَقْعُـدَنَّ لَهُمْ صِـرَاطَكَ الْمُسْـتَقِيمَ 16 ثُمَّ لَآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْـدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـانِهِمْ وَعَنْ شَـمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِـدُ أَكْثَـرَهُمْ شَـاكِرِينَ 17) [الأعراف: 16، 17].

وقال الله تعالى: (يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِـدُهُمُ الشَّـيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا 120 أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا 121) [النساء: 120، 121].

سـبب الخـاطر الـداعي إلى الخـير يسـمى ملكًـا، وسـبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطانًا.

واللطف الـذي يتهيأ به القلب لقبـول إلهـام الخـير يسـمى توفيقًـا، والـذي يتهيأ به لقبـول وسـواس الشـيطان يسـمى إغواء وخذلانًا.

والملك عبـارة عن خلق خلقه الله من نـور، شـأنه إفاضة الخير، وإفادة العلم، وكشف الحق، والوعد بـالخير، وكمـال الطاعة، والأمر بالمعروف، وقد خلقه الله وسخره لذلك.

والشـيطان عبـارة عن خلق خلقه الله من نـار، وشـأنه ضد عمل الملـك، فعمله الوعد بالشـر، والأمر بالفحشـاء والمنكر، والتخويف عند الهم بالخير بالفقر، وإيقاع العـداوة والبغضـاء بين النـاس، والأمر بالسـوء، وتـزيين المعاصي للعباد، وهو عدو بـني آدم قاطبـة: (إِنَّ الشَّـيْطَانَ لَكُمْ عَـدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْـحَابِ السَّـعِيرِ 6) [فاطر: 6].

والقلب بأصل الفطرة صـالح لقبـول آثـار الملـك.. ولقبـول آثار الشيطان.. صلاحًا متساويًا.

ويترجح أحد الجانبين على الآخر باتبـاع الهـوى، والانغمـاس في الشهوات، أو الإعراض عنها ومخالفتها.

فـإن اتبع الإنسـان مقتضى الغضب والشـهوة، ظهر تسـلط

---

[55] - فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج 10 / ص 1555) وإحياء علوم الدين - (ج 2 / ص 234) وموسوعة فقه القلوب - (ج 3 / ص 60) والزواجر عن اقتراف الكبائر - (ج 1 / ص 219)

الشـيطان بواسـطة الهـوى، وصـار القلب عش الشـيطان ومعدنه، لأن الهوى مرعى الشيطان ومرتعه.
وإن جاهد الشـهوات ولم يسـلطها على نفسـه، وتشـبه بأخلاق الملائكة، صار قلبه مستقر الملائكة ومهبطهم.
ومهما غلب على القلب ذكر الدنيا بمقتضـيات الهـوى، وجد الشيطان مجالاً فوسوس.
ومهما انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى ارتحل الشيطان، وضاق مجاله، وأقبل الملك، وألهم فعل الخير.
والتطارد بين جندي الملائكة والشياطين دائم، إلى أن ينفتح القلب لأحدهما فيستوطن ويستمكن، ويكون اجتيـاز الثـاني اختلاسًا.
ولا يمحو وسوسة الشـيطان من القلب إلا ذكر ما سـوى ما يوسوس بـه، لأنه إذا خطر في القلب شـيء، انعـدم منه ما كان فيه من قبل.
فينبغي للعبد أن يشتغل بدفع العدو عن نفسـه، لا بالسـؤال عن أصله ونسبه ومسكنه.
وأن يعـرف سـلاح عـدوه، ليدفعه عن نفسـه، وسـلاح الشيطان الهوى والشهوات، وذلك كافٍ للعالمين.
فالقلب كالحصـن، والشـيطان عـدو يريد أن يقتحم الحصن ويدخله، فيملكه ويستولي عليه.
ولا يقدر الإنسـان على حفظ الحصن من العـدو إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله، ومواضع ثلمه.
فمن أبوابه العظيمة: الغضب والشهوة، فالغضب غـول العقل، وإذا ضعف جند العقل، هجم جند الشـيطان، فأفسد القصر ومن فيه.
ومهما غضب الإنسـان، لعب الشـيطان بـه، وفجر شـهواته فيما يغضب الله.
ومن أبوابه العظيمة: الحسد والحرص، فمهما كان الإنسـان حريصًا على كل شيء، أعماه حرصه، وأصـمه عن الإيمـان، وأقعده عن الطاعات، وزين له الكفر والفسوق والعصيان.
ومن أبوابه العظيمة: الطمع في الناس، وإذا غلب عليه الطمع زين له الشـيطان، وحبب إليه التصـنع والـتزين لمن

طمع فيه بأنواع الرياء والتلبيس، حتى يصير المطموع فيه معبوده، فلا يزال يتفكر في حيلة التودد والتحبب إليه ولو على حساب دينه.

ومن أبوابه العظيمة: الدراهم والدنانير، وسائر أصناف الأموال من العروض والدواب والعقار والأشياء.

فكل ما يزيد على قدر القوت والحاجة، فهو مستقر الشيطان، فإن من معه قوته فهو فارغ القلب.

فلو وجد مائة دينار مثلاً على طريق، انبعث من قلبه عشر شهوات، تحتاج كل شهوة إلى مائة دينار أخرى، فلا يكفيه ما وجد، فيزيد في الطلب، ويزيد في الإنفاق، وذلك أمر لا آخر له.

ومن أبوابه العظيمة: العجلة وترك التثبت في الأمور، حتى يقع فيما لا يحمد عقباه.

ومن أبوابه العظيمة: البخل وخوف الفقر، ليمنع به الصدقات والزكوات والإحسان إلى العباد، لتكثر الجرائم والسرقات.

ومن آفات البخل: الحرص على ملازمة الأسواق لجمع المال، والأسواق مسرح الشياطين، تزين لأهلها الكذب والغش والاحتيال.

ومن أبوابه العظيمة: حب التزين في الأثاث والثياب، والمراكب والمساكن.

فإن الشيطان إذا رأى ذلك غالبًا على قلب الإنسان باض فيه وفرخ، فلا يزال يدعوه إلى عمارة الدار وتزيينها وتوسيعها، ويدعوه إلى التزين بالثياب والدواب والمراكب، وتجديد الأواني والأثاث، ويستسخره فيها طول عمره، ويشغله بها عما خلق له، من طاعة الله وعبادته والدعوة إليه.

ولا يزال يغريه ويزين له، حتى ينقله من صف المحسنين المتقين إلى صف المسرفين والمبذرين والمترفين.

ومن أبوابه المهلكة: التعصب للمذاهب والقبائل والأهواء والأشخاص، والحقد على الخصوم، والنظر إليهم بعين الازدراء والاستخفاف والاحتقار.

وذلك مما يهلك العباد والفساق جميعًا.
فـالطعن في النـاس، والاشـتغال بـذكر عيـوبهم ونقصـهم، وأكل لحومهم، من صفات السباع المهلكة.
ومن أبوابه كذلك سوء الظن بالمسلمين، فيغريه الشـيطان بغيبته فيهلــك، ويقصر في القيــام بحقــه، أو يتــوانى في إكرامه، وينظر إليه بعين الاحتقـار، ويـرى نفسه خـيرًا منـه، وكل ذلك من المهلكات.
ومن أبوابه العظيمـة: الإسـراف في إضـاعة الأمـوال بالشـهوات، وإضـاعة الأوقـات بالباطـل، وإضـاعة العقـول بالعلوم السافلة، وإضاعة الحسنات بجمع الحطام الفاني.
والملائكة والشـياطين تتـوارد على القلـوب، وتحـوم حـول أبوابها، فإن أصابه هـذا من جـانب، أصـابه الآخر من جـانب آخر.
فإذا نـزل به الشـيطان، فـدعاه إلى الهـوى، نـزل به الملك فصرفه عنه، وإن جذبه شيطان إلى شر، جذبه شيطان آخر إلى غيره، وإن جذبه ملك إلى خير، جذبه ملك آخر إلى خير غيره.
فتــــارة يكـــــون القلب متنازعًا بين ملكين.. وتــــارة بين شيطانين، وتارة بين ملك وشيطان.
والقلـوب في التقلب والثبـات على الخـير والشر ثلاثة:
أحــدها: قلب عُمر بــالتقوى، وطهر عن خبــائث الأخلاق، تنقـدح فيه خـواطر الخـير، المفتوحة فيه أبـواب الملائكـة، المسدودة عنه أبواب الشياطين، يرى الحق ويحبــه، ويعمل به، ويدعو إليه، ويصبر عليه، وينفر مما سوى ذلك.
الثاني: قلب مخـذول مشـحون بـالهوى، مـدنس بـالأخلاق المذمومـــة، والقبــائح والخبــائث، المفتــوح فيه أبـــواب الشياطين، المسدود عنه أبواب الملائكة.
ومبـدأ الشر فيـه، أن ينقـدح فيه خـاطر الهـوى فيـأنس به ويستجيب له، فيرى الباطل ويحبه، ويعمل به، ويـدعو إليـه، ويصبر عليه، وينفر مما سواه.
الثالث: قلب تبدو فيه خواطر الهـوى فتـدعوه إلى الشــر،

فيلحقه خاطر الإيمان والهدى، فيدعوه إلى الخير والهدى.
فتنبعث النفس بشهواتها إلى نصرة خاطر الشر فتقوى الشهوة، وتحسن التمتع والتنعم، فينبعث العقل إلى خاطر الخير، فيدفع عن وجهه الشهوة، ويقبحها ويقبح فعلها، وينسبها إلى الجهل، ويشبهها بالبهيمة والسبع في تهجمها على الشر، وقلة اكتراثها بالعواقب.
فتميل النفس إلى نصح العقل، فيحمل الشيطان حملة على العقل، فيقوي داعي الهوى، ثم يحمل الملك على الشيطان، فعند ذلك تستجيب النفس إلى قول الملك.
ولا تزال الأحزاب والجنود متوالية عليه، حتى يظفر به أقواهما وأصبرهما.
وقد جعل الله للشيطان دخولاً في جوف العبد، ونفوذًا إلى قلبه وصدره، فهو يجري منه مجرى الدم، ويتجول على سائر أعضائه وجوارحه.
وقد وكل بالعبد فلا يفارقه إلى الممات.
وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ ». قَالُوا وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ « وَإِيَّاىَ إِلاَّ أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِى عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلاَ يَأْمُرُنِى إِلاَّ بِخَيْرٍ ». **أخرجه مسلم**[56]**.**
وقد وصف الله عزَّ وجلَّ الشيطان بأعظم صفاته، وأشدها خطرًا، وأقواها تأثيرًا، وأعمها فسادًا، وهي الوسوسة التي هي مبادئ الإرادة.
فإن القلب يكون فارغًا من الشر والمعصية فيوسوس إليه الشيطان، ويخطر الذنب بباله، ويشهيه له، فيصير شهوة، ويزينها له ويحسنها، ويخيلها له في خيال تميل نفسه إليه، فيصير إرادة، وينسيه علمه بضررها، ويطوي عنه سوء عاقبتها، فلا يرى إلا صورة المعصية فقط، وينسيه ما وراء ذلك.
فتصير الإرادة عزيمة جازمة، فيشتد الحرص عليها من القلب، فيبعث الجنود في الطلب، فيبعث الشيطان معهم

[56](?) أخرجه مسلم برقم (2814).

مددًا لهم وعونًا.
فإن فتروا حركهم، وإن سكنوا أزعجهم كما قال سبحانه: (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿83﴾) [مريم: 83].
فأصل كل معصية الوسوسة، ولهذا وصفه الله بها، وحذرنا: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿1﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿2﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿3﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿4﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿5﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿6﴾) [الناس: 4-6].
فالذي يوسوس في صدور الناس نوعان:
إنس.. وجن.
فالجني يوسوس في صدور الناس.. والإنسي أيضًا يوسوس إلى الإنسي.
والوسوسة: الإلقاء الخفي في القلب، وهذا مشترك بين الجن والإنس كما قال سبحانه: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿112﴾) [الأنعام: 112].
فشياطين الإنس والجن يشتركون في الوحي الشيطاني، ويشتركون كذلك في الوسوسة، ويشتركون كذلك في الفساد والإفساد.
وكما أن الملائكة ليس لهم عمل إلا عبادة الله وطاعته، فهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ولا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.
فكذلك الشيطان وذريته ليس لهم هم ولا عمل إلا إضلال بني آدم، وإغوائهم ابتلاء من الله، ليعلم من يطيعه ممن يطيع عدوه.
وحيل الشيطان، ومكره، وكيده، وخطواته في تحقيق ما يريد، من أعجب العجب.
فإذا أقبل على الإنسان بجنوده وعساكره.. فوجد القلب في حصنه جالسًا على كرسي مملكته.. أمره نافذ، وجنده قد أحاطوا به.. يحرسونه ويدافعون عنه.
فلا يتمكن الشيطان وجنوده من الهجوم عليه إلا

بمخـارة بعض أمرائـه، وأخص جنـده وهي النفس، فزينوا لها الشهوات والمحبوبـات، حـتى اسـتولت على القلب، ومكنت للشياطين من الاستيلاء على ثغور المملكة:

العين.. والأذن.. واللسان.. والفم.. واليد.. والرجل.

وأمر الشيطان جنوده بالمرابطة على هذه الثغور.

وقال: ادخلوا منها إلى القلب لتقتلوه أو تثخنوه، ولا تمكنـوا أحـداً يـدخل منها إلى القلب، فيخـرجكم منـه، ويفسـده عليكم.

وامنعـوا ثغر العين أن يكـون نظرها اعتبـارًا، بل اجعلـوه تفرجًا وتلهيًا، وبالعين تنالون بغيتكم من بني آدم.

فابذروا في القلوب بذور الشهوة، ثم اسقوه بمـاء الأمنيـة، ثم عِـدوه ومنّـوه حـتى تقـوى عزيمتـه، فيقع في المعصـية فيهلك.

ثم امنعوا ثغر الأذن أن يدخل منه ما يفسد عليكم أمركم.

واجتهدوا ألا يـدخل منه إلا الباطل واللهـو، فإنه خفيف على النفس، تستحليه وتستملحه وتطرب له.

وإياكم أن يدخل من هذا الثغر شيء من كلام الله ورسوله، لئلا يفسد عليكم أمركم، ويحرق سلعتكم.

فـإن دخل شـيء فأفسـدوه عليه بإدخـال ضـده عليه أو تهويله.

ثم امنعوا ثغر اللسان أن يدخل منه ما ينفع القلب، من ذكر الله واستغفاره وتلاوة كتابه، ونصح عباده، والدعوة إليه.

وزينوا له الكلام بما يضره ولا ينفعـه، إما بـالتكلم بالباطـل، وإما بالسكوت عن الحق.

فالرباط.. الرباط.. الرباط.. على هذا الثغر أن يتكلم بحـق، أو يمسك عن باطل.

وهذا الثغر هو الثغر الأعظم، الذي أهلك منه الشيطان بـني آدم، وأكبهم على مناخرهم في النار.

واقعدوا لبني آدم بكل رصد.. وبكل طريق.. وبكل مناسبة:

(قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿16﴾ ثُمَّ لَآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ

شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17) [الأعراف: 16، 17].
وعَنْ سَبْرَةَ بْنِ أَبِى فَاكِهٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ « إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لاِبْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الإِسْلاَمِ فَقَالَ تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ فَقَالَ تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِى الطِّوَلِ فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ تُجَاهِدُ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ وَيُقْسَمُ الْمَالُ فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ ». فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ». **أخرجه أحمد والنسائي** [57].

والسبل التي يسلكها الإنسان أربعة:

اليمين.. والشمال.. والأمام.. والخلف.

وأي سبيل سلكها الإنسان من هذه وجد الشيطان عليها رصدًا له.

فإن سلكها العبد في طاعة وجد الشيطان عليها يثبطه عنها، ويبطئه ويعوقه.

وإن سلكها في معصية وجده عليها حاملاً له وخادمًا، ومعينًا ومزينًا.

ثم الزموا ثغر الأيدي والأرجل، فامنعوها أن تبطش بما يضركم أو تمشي فيه، وقيدوها عن الأعمال الصالحة، وحركوها لتمشي في كل شر وفساد، وتبطش بكل صالح تقي.

واعلموا أن أكبر أعوانكم النفس الأمارة، فاستعينوا بها على حرب النفس المطمئنة.

---

[57] (?)أخرجه أحمد برقم (16054)، و سنن النسائى برقم (3147)صحيح =الطول : حبل يشد به قائمة الدابة =وقصت : كسرت عنقه انظر السلسلة الصحيحه رقم (2937).وأخرجه النسائي برقم (3134)، وهذا لفظه، صحيح سنن النسائي رقم (2973).

فـإذا قـويت النفس الأمـارة، فاسـتنزلوا القلب من حصـنه، واعزلوه عن مملكتـه، وولـوا مكانه النفس الأمـارة، فإنها لا تأمر إلا بما تهوونه وتحبونه.

واستعينوا على بني آدم بجنديين عظيمين:

أحدهما: جند الغفلـة، فـأغفلوا قلـوب بـني آدم عن اللـه، وعن أوامر اللـه، وعن الـدار الآخـرة، فـإن القلب إذا غفل عن الله تعالى تمكنتم منه.

والثاني: جند الشـهوة، فزينـوا الشـهوات في قلـوب بـني آدم، وحسنوها في أعينهم، فإن رأيتم جماعة اجتمعـوا على ذكر الله، ولم تقدروا على تفريقهم، فاستعينوا عليهم ببـني جنسهم من الإنس البطالين.

وانتهزوا فرصة الشهوة والغضب، فلا تصطادوا بني آدم في أعظم من هذين الوطنين، فإني أخرجت أبويهم من الجنة بالشهوة، وألقيت العداوة بين أولادهم بالغضب: (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ 20) [سبأ: 20].

فالمـداخل الـتي يـأتي الشـيطان من قبلها إلى الإنسان ثلاثة:

الشهوة.. والغضب.. والهوى.

فالشـهوة بهيميـة، وبها يصـير الإنسـان ظالمًا لنفسـه، ومن نتائجها الحرص والبخل.

والغضب سـبعية، وهو آفة أعظم من الشـهوة، وبالغضب يصـير الإنسـان ظالمًا لنفسه ولغـيره، ومن نتائجه العجب والكبر.

والهـوى شـيطانية، وهو آفة أعظم من الغضـب، وبـالهوى يتعدى ظلمه إلى خالقه بالشرك والكفر، ومن نتائجه الكفر والبدعة والمعصية.

وأكـثر ذنـوب الخلق بهيميـة، لعجـزهم عن غيرهـا، ومنها يدخلون إلى بقية الأقسام.



18- علامات مرض القلب وصحته [58]

قال الله تعالى: (وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (125)) [التوبة: 124، 125].

وقال الله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (61)) [النساء: 61].

خلق الله تبارك وتعالى كل عضو من أعضاء البدن لفعل خاص به، وجعل كماله في حصول ذلك الفعل منه.

ومرضه أن يتعذر عليه الفعل الذي خلق له، حتى لا يصدر منه، أو يصدر مع نوع من الاضطراب والنقص.

فمرض اليد أن يتعذر عليها البطش، ومرض العين أن يتعذر عليها النظر والرؤية، ومرض اللسان أن يتعذر عليه النطق، ومرض البدن أن تتعذر عليه حركته الطبيعية، أو يضعف عنها.

ومرض القلب أن يتعذر عليه ما خلق له من المعرفة بالله، ومحبته، والشوق إلى لقائه، والإنابة إليه، وإيثار ذلك على جميع شهواته.

فلو عرف العبد كل شيء ولم يعرف ربه فكأنه لم يعرف شيئًا.

ولو نال كل حظ من حظوظ الدنيا ولذاتها وشهواتها، ولم يظفر بمحبة الله والشوق إليه، والأنس به، فكأنه لم يظفر بلذة ولا نعيم ولا قرة عين.

بل إذا كان قلب العبد خاليًا عن ذلك، عادت تلك الحظوظ واللذات عذابًا له ولا بدَّ، فيصير معذبًا بنفس ما كان منعمًا به من جهتين:

---

[58] - آفات على الطريق كامل - (ج 1 / ص 79)وموسوعة خطب المنبر - (ج 1 / ص 1464) وموسوعة خطب المنبر - (ج 1 / ص 4446) وموسوعة خطب المنبر - (ج 1 / ص 5066) وموسوعة فقه القلوب - (ج 3 / ص 68)

من جهة حسـرة فوتـه، وأنه حيل بينه وبينه مع شـدة تعلق روحه به.
ومن جهة فوت ما هو خـير له وأنفع وأدوم، حيث لم يحصل له.
وكل من عرف الله عزَّ وجلَّ أحبه، وأخلص له العبـادة، ولم يؤثر عليه شيئًا من المحبوبات.
فمن آثر عليه شيئًا من المحبوبات فقلبه مريض ولا بدَّ، كما أن المعـدة إذا اعتـادت أكل الخـبيث وآثرته على الطيب، سقطت عنها شهوة الطيب.
وقد يمـرض قلب الإنسـان ويشـتد مرضـه، ولا يعـرف به صـاحبه، لانشـغاله عنـه، بل قد يمـوت وصـاحبه لا يشـعر بموته.
وعلامة ذلك:
أن لا تؤلمه جراحات القبائح.. ولا يوجعه جهله بالحق.
فإن القلب إذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليـه، وتـألم بجهله بالحق بحسب حياته.
وقد يشعر بمرضـه، ولكن يشـتد عليه تحمل مـرارة الـدواء والصبر عليها، فهو يؤثر بقاء ألمه على مشقة الـدواء، فـإن دواءه في مخالفة الهوى، وذلك أصعب شـيء على النفس، وليس لها أنفع منه.
وتارة يـوطن نفسه على الصـبر، ثم ينفسخ عزمـه، لضـعف علمه وبصيرته وصبره.
والقلب يبصر الحق كما تبصر العين الشـمس، والحق إذا لاح وتبين، لم يحتج إلى شـاهد يشـهد بـه، كما أن الأجسـام إذا تجلت أمام العين لم تحتج إلى شاهد.
والحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى، من عهد النـبي صلى الله عليه وسـلم وأصـحابه، والجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحـدك، وإذا فسـدت الجماعة فعليك بما كـانت عليه الجماعة قبل أن تفسد وإن كنت وحـدك، فإنك أنت الجماعة حينئذ فالزم الحق.
فالعصر إذا كـان فيه إمـام عـارف بالسـنة داعٍ إليهـا، فهو الحجـة، وهو الإجمـاع، وهو السّـواد الأعظم، وهو سـبيل

المؤمنين الـتي من فارقها واتبع سـواها ولاه الله ما تـولى، وأصلاه جهنم وساءت مصـيرًا: (وَمَنْ يُشَـاقِقِ الرَّسُـولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَـهُ الْهُـدَى وَيَتَّبِـعْ غَيْـرَ سَـبِيلِ الْمُـؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا 115) [النساء: 115].

ومن علامـات أمـراض القلـوب عـدولها عن الأغذية النافعة الموافقة لها إلى الأغذية الضـــارة.. وعــــدولها عن دوائها النافع إلى دائها الضار.

والقلب الصحيح يؤثر النـافع الشـافي على الضـار المـؤذي، والقلب المريض بضد ذلك، يؤثر الضـار المهلك على النـافع الشافي.

وأنفع الأغذية غــذاء الإيمــان.. وأنفع الأدوية دواء القــرآن.. وكل منهما فيه الغذاء والدواء، والشفاء والرحمة.

ومن علامات صحة القلب أن يرتحل عن الـدنيا حـتى يـنزل بالآخرة، ويحل فيها حـتى يبقى كأنه من أهلها وأبنائهـا، جـاء إلى هذه الدار غريبًا يأخذ حاجته ويعود إلى وطنه فعَنْ عَبْـدِ اللَّهِ بْنِ عُمَـرَ - رضى الله عنهما - قَـالَ أَخَـذَ رَسُـولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - بِمَنْكِبِى فَقَالَ « كُنْ فِى الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ » . وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ إِذَا أَمْسَـيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِـرِ الْمَسَـاءَ ، وَخُـذْ مِنْ صِـــحَّتِكَ لِمَرَضِـــكَ ، وَمِنْ حَيَاتِـــكَ لِمَوْتِـــكَ .. **أخرجه البخاري**[59].

وكلما صح القلب من مرضـــه، ترحل إلى الآخــرة، وقــرب منها حــتى يصــير من أهلهــا، يعمل بأعمالهــا، ويجــني من ثمارها.

وكلما مـرض القلب واعتـل، آثر الـدنيا واسـتوطنها، حـتى يصير من أهلها.

ومن علامات صحة القلب، أنه لا يزال يضرب على صـاحبه، حـتى يـنيب إلى اللـه، ويخبت إليـه، ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه الذي لا حياة له ولا نعيم ولا سـرور إلا برضاه وقربه والأنس به.

ومن علامــات صـحته كـذلك أن لا يفـتر عن ذكر ربــه، ولا

59(?) أخرجه البخاري برقم (6416).

يســأم من خدمتــه، ولا يــأنس بغــيره إلا بمن يدله عليــه، ويذكره به.
ومن علامات صحته أنه إذا فاته فرض من فـرائض اللـه، أو فاته ورده، وجد لفواته ألمًا عظيمًـــــا، أعظم من تـــــألم الحريص بفوات ماله وفقده.
ومن علامـات صـحته أنه يشـتاق إلى الخدمة والعبـادة، كما يشـتاق الجـائع إلى الطعـام أو الشـراب، وأنه إذا دخل في الصــلاة ذهب عنه همه وغمه بالــدنيا، واشــتد عليه خروجه منها، ووجد فيها راحته ونعيمه.
ومن علامـات صـحته أن يكـون همه واحـدًا، وأن يكـون في الله، وأن يكون أشح بوقته أن يذهب ضائعًا من أشد الناس شحًا بماله.
وأن يكون اهتمام العبد بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل.
فيحرص فيه على الإخلاص والمتابعة والإحسان، ويشـهد مع ذلك منة الله عليه فيه، وتقصيره في حق الله جل جلاله.
فالقلب السليم الصـحيح هو الـذي همه كله في اللـه، وحبه كله للــه، وقصــده لــه، وبدنه لــه، وأعماله لــه، ونومه لــه، ويقظته لـه، وحديثه لـه، والحـديث عنه أشـهى إليه من كل حديث، وأفكاره تحوم حول مراضيه، ومحابه سبحانه.
وكلما وجد من نفسه تقاعسًا أو التفاتًا إلى غيره تلا عليها: (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿27﴾ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿28﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿29﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿30﴾) [الفجر: 27-30].
فــإذا انصــبغ القلب بين يــدي إلهه ومعبــوده الحق بصــبغة العبوديــة، صـارت العبودية صـفة لـه، وأتى بها تـوددًا وتحببًا وتقربًا.
فكلما عــرض له أمر من ربه أو نهي قـال: لبيك وسـعديك، والمنّة لك، والحمد فيه عائد إليك: (آمَنَ الرَّسُـولُ بِمَا أُنْـزِلَ إِلَيْــهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُــونَ كُــلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِــهِ وَكُتُبِــهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَـرِّقُ بَيْنَ أَحَـدٍ مِنْ رُسُـلِهِ وَقَـالُوا سَـمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿285﴾) [البقرة: 285].
وإن أصابه قـدر قـال: أنت ربي العزيز الـرحيم، وأنا الفقـير

العـاجز الضـعيف، لا صـبر لي إن لم تصـبرني، ولا ملجأ لي منك إلا إليك.

وإن أصابه ما يكره قال رحمة أهديت إلي، وإن صــرف عنه ما يحب قال شرًا صرف عني.

فكل ما مسه به من الســراء والضــراء، اهتــدى بها طريقًا إليه، وانفتح له منه باب يدخل منه عليه.

والقلب الصــحيح: هو الــذي عــرف الحق واتبعــه، وعــرف الباطل واجتنبه.

فاللهم أرنا الحق حقًــا، وارزقنا اتباعــه، وأرنا الباطل بـاطلاً، وارزقنا اجتنابه.

ومرض القلوب نوعان:

مرض شبهات وشكوك.. ومرض شهوات وفسوق.

وصحة القلب الكاملة تتم بشيئين:

كمال معرفته بالله وعلمه ويقينــه.. وكمـال إرادته وحبه لما يحبه الله ويرضاه.

فإن كان عند الإنسان شبهات تعارض ما أخــبر الله بــه، في أصول الدين وفروعه، كان علمه منحرفًا.. وإن كانت إرادته ومحبته مائلة لشيء من معاصي الله، كان ذلك انحرافًا في إرادته، وهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر.

فلا تغلب على العبد الشبهات إلا بفساد علمه باللــه، وجهله بعدله وقضائه، وحكمته وشرعه وجزائه.

ولا تغلب عليه الشـهوات إلا بفسـاد نفسـه، وغلبة شـهوات الــدنيا عليــه، وغلبة رياســاتها وحظوظها على ما عند الله والدار الآخرة.

وإنما يكون فقط أحدهما أبرز من الآخر.

فمن الأول قوله سبحانه: (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿10﴾) [البقرة: 10].

ومن الثاني قوله سبحانه: (يَا نِسَـاءَ النَّبِيِّ لَسْـتُنَّ كَأَحَـدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِـهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿32﴾) [الأحزاب: 32].

والقلب مكــان الإيمــان والتقــوى، كما أن المعــدة مكــان

الطعام والشراب، والإيمان في القلب يحرك البــدن لطاعة الله، كما أن الطعام في المعدة يمد البدن بالغذاء الــذي به تتم صحته وتكمل حركته.
فـالقلب يحتـاج إلى غـذاء الإيمـان، والبـدن يحتـاج إلى أكل الطيبات، وكلاهما لازم للإنسان، وكماله باجتماعهما، وهلاكه بفقدهما.
ولهذا أمرنا الله عزَّ وجلَّ بهذا وهذا فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿172﴾﴾ [البقرة: 172].
والقلب مـنزل الملائكـة، ومهبط أثـرهم، والصـفات الرديئة فيه مثل الغضب والشــهوة المحرمــة، والحقد والحســد، والكــبر والعجب، وأخواتها كلها كلاب نابحــة، فــأنى تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب؟.
وحــرام على قلب أن يدخله النــور، وهو مظلم فيه شــيء مما يكره الله عزَّ وجلَّ.
وعلل القلب كثيرة مؤلمة أشد من ألم البدن.
وعلاجها: أن ينظر إلى العلة أولاً.. فـإن كـان المـرض داء البخل.. فعلاجه بـذل المـال.. ولكن لا يسـرف، أو يبـذر، ولا يقتر.
ومعرفة الوسط تكون بأن تنظر إلى نفسك.
فــإن كــان إمســاك المــال وجمعــه، ألذ عنــدك من بذله لمسـتحقه، فـاعلم أن الغـالب عليك البخـل، فعـالج نفسك بالبذل.
وإن كان البـذل ألذ عنـدك وأخف عليك من الإمسـاك، فقد غلب عليك التبذير، فارجع إلى المواظبة على الإمساك.
ولا تزال تراقب نفسك، حتى تنقطع علاقة قلبك بالمال، فلا تبالي من قلته أو كثرته، ولا تميل إلى بذله ولا إمساكه.
فكل قلب صار كذلك فقد جاء الله سليمًا.
وإذا أراد الله بعبد خـيرًا بصـره بعيـوب نفسـه.. وإذا عـرف العيوب أمكنه العلاج.. وما أنـزل الله داء إلا أنـزل له دواء.. علمه من علمه وجهله من جهله.
وعلاج أدواء القلوب معلوم موجود، وهو أن تعرف فاطرها

ومعبودها وتطيع أمره.. وتحب ما يحب.. وتحذر مما يكره.. وذلك كله في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم : (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿44﴾) [فصلت: 44].

19- فقه أمراض القلوب وعلاجها[60]

قال الله تعالى: (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (10)) [البقرة: 10].
وقال الله تعالى: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28)) [الكهف: 28].
مرض القلب: هو نوع فساد يحصل له، ويفسد به تصوره وإرادته.
ففساد تصوره يكون بالشبهات التي تعرض له، حتى لا يرى الحق، أو يراه خلاف ما هو عليه.
وفساد إرادته يكون ببغض الحق النافع، وحب الباطل الضار.
فلهذا يفسر المرض تارة بالشك كما قال سبحانه عن المنافقين: (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا) [البقرة: 10].
وتارة يفسر بالشهوة كما قال سبحانه: (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (32)) [الأحزاب: 32].
والمريض يؤذيه ما لا يؤذي الصحيح، والمرض في الجملة يضعف الإنسان، ويجعل قوته ضعيفة لا تطيق ما يطيقه القوي.
والمرض يقوى بمثل سببه ويزول بضده، فإذا حصل للمريض مثل سبب مرضه زاد مرضه، وزاد ضعف قوته، حتى ربما هلك.
ومرض القلب: ألم يحصل في القلب كالغيظ من عدو استولى عليك، فإن ذلك يؤلم القلب.
وكذلك الشك والجهل يؤلم القلب، وشفاء العي السؤال.

---

[60] - موسوعة خطب المنبر - (ج 1 / ص 2256) وموسوعة فقه القلوب - (ج 3 / ص 73)

والمـرض دون المـوت، فـالقلب يمـوت بالجهل المطلـق، ويمـرض بنـوع من الجهـل، فللقلب مـوت ومـرض، وحيـاة وشفاء.. كالبدن تماماً.
وحيــاة القلب وموتــه، ومرضه وشــفاؤه، أعظم من حيــاة البدن وموته، ومرضه وشفائه.
فلهـذا مـريض القلب إذا ورد عليه شـبهة أو شـهوة قـوت مرضـه، وإن حصـلت له حكمة وموعظة كـانت من أسـباب صلاحه وشفائه.
والقــرآن شــفاء لما في الصــدور، ومن في قلبه أمــراض الشـبهات والشـهوات، ففي القـرآن من البينـات ما يزيل الحق من الباطل.
فيزيل أمراض الشـبهة المفسـدة للعلم والتصـور والإدراك، بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه.
وفيه من الحكمة، والموعظة الحسـنة، والقصص الـتي فيها عبرة، ما يوجب صلاح القلب، فيرغب فيما ينفعه، ويحذر ما يضره.
فالقلب يتغذى من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويشــفيه، كما يتغــذى البــدن من الطعــام والشــراب بما ينميه ويقومــه، فزكاة القلب مثل نماء البدن.
والقلب يحتاج أن يـتربى فينمو ويزيـد، حـتى يكمل ويصـلح، كما يحتاج البدن أن يربى بالأغذية المصـلحة لـه، ولا بـدَّ مع ذلك من منع ما يضره.
فالصــدقة مثلاً تــزكي القلب، وكــذلك تــرك الفــواحش والمعاصي يزكو بها القلب، فإنها بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن.
فـإذا اسـتفرغ البـدن من الأخلاط الرديئـة، اسـتراح البـدن ونما، وكذلك القلب إذا تاب من الذنوب، كان اسـتفراغًا من تخليطاته، حيث خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا.
فإذا تاب العبد من الذنوب والمعاصي، تخلصت قـوة القلب وإرادته للأعمال الصـالحة، واسـتراح القلب من تلك المـواد الفاسدة التي كانت فيه.
فصلاح القلب في العدل وهو التوحيد والإيمان، وفساده في

الظلم وهو الشرك والكفر.
ولهذا جميع الذنوب يكون العبد فيها ظالمًا لنفسه، وظالمــاً لغيره.
والعمل له أثر في القلب، من نفع وضــر، وصــلاح وفســاد، قبل أثره في الخارج.
وصـــحة القلب وصـــلاحه في العـــدل، ومرضه من الزيغ والانحراف والظلم.
والظلم كله من أمراض القلوب بأنواعه الثلاثة:
الظلم في حق الـــرب.. والظلم في حق النفس.. والظلم في حق الخلق.
وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته كما قـال سـبحانه: (أَوَمَنْ كَـانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـاهُ وَجَعَلْنَا لَـهُ نُـورًا يَمْشِـي بِـهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَـذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (122)) [الأنعام: 122].
ومن أمراض القلوب الحسد: وهو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود.
والحسد نوعان:
أحدهما: كراهة الإنسـان للنعمة على غـيره مطلقًـا، وهـذا هو الحسد المـــذموم، وإذا أبغض ذلك فإنه يتـــألم ويتـــأذى بوجود ما يبغضه، فيكون ذلك مرضًا في قلبـه، ويلتذ بـزوال النعمة عنه، وإن لم يحصل له نفع بزوالهــا، لكن نفعه زوال الألم الذي كان في نفسه.
الثــاني: أن يكــره فضل ذلك الشــخص عليــه، فيحب أن يكون مثله، أو أفضل منـه، فهـذا حسـد، وهو الـذي يسـمى الغبطة والمنافسة.
وهذا وإن كـان مباحـاً، إلا أن السـالم من هـذه الأمـور أرفع درجة ممن عنده منافسة وغبطة.
ويعرض لكل قلب مرضان عظيمان وهما:
مرض الرياء.. ومرض الكبر.
فــدواء مــرض الريــاء بــ: (إِيَّاكَ نَعْبُـدُ وَإِيَّاكَ نَسْـتَعِينُ (5) [الفاتحة: 5].
ودواء مــرض الكــبر بـــ: (إِيَّاكَ نَعْبُـدُ وَإِيَّاكَ نَسْـتَعِينُ (5)

[الفاتحة: 5].
فـإذا عـوفي المسـلم من مـرض الريـاء بإيـاك نعبـد.. ومن مرض الكـبر بإيـاك نسـتعين.. ومن مـرض الجهل والضـلال باهــدنا الصــراط المســتقيم.. فقد عــوفي من أمراضه وأسقامه.. وكان من المنعم عليهم، غير المغضوب عليهم.. وهم الذين عرفـوا الحق وعـدلوا عنـه.. ولا الضـالين.. وهم الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه.
وزكـاة القلب موقوفة على طهارتــه، كما أن زكـاة البــدن موقوفة على اســتفراغه من أخلاطه الرديئة الفاســدة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُـوا لَا تَتَّبِعُـوا خُطُـوَاتِ الشَّـيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِـعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْـلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُـهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَـدٍ أَبَـدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (21)) [النور: 21].
وقـال سبحانه: (قَـدْ أَفْلَحَ مَنْ تَـزَكَّى (14) وَذَكَـرَ اسْـمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15)) [الأعلى: 14، 15].
فأصل ما تزكو به الأرواح والقلــوب هو التوحيد والإيمــان، الذي بهما يزكو القلب، وينشرح الصدر.
فــإن ذلك يتضــمن نفي إلهية ما ســوى الحق من القلب، وذلك طهارتـه، وإثبـات إلهيته سـبحانه، وهو أصل كل زكـاة ونماء.
فإن التزكي وإن كـان أصـله النمـاء والزيـادة والبركـة، فإنه كذلك يحصل بإزالة الشر.
فلهذا صار التزكي ينتظم الأمرين جميعًا.
فمن غض بصره عما حرم الله عزَّ وجلَّ، عوضه الله تعـالى من جنسه ما هو خــير منــه، فمن أمسك نــور بصــره عن المحرمات، أطلق الله نـور بصـيرته وقلبـه، فـرأى به ما لم يــره من أطلق بصــره، ولم يغضه عن محـارم الله تعـالى، وهذا أمر يحسه الإنسان من نفسه.
والقلوب تمـرض كما تمـرض الأبـدان، وتعتريها الآفـات كما تعتري الأعضاء والجوارح.
وكما أن للأبدان غذاءً ودواءً، فكذلك للقلوب غذاء ودواء.
وعلامة صــحة القلب قبوله ما ينفعه ويغذيه من الإيمــان،

ومعرفة ربــه، ومعرفة أســمائه وصــفاته وأفعالــه، وحب الطاعات والأعمال الصالحة، والإعراض والنفرة عما سـوى ذلك.
وعلامة فساد القلب، عدوله عن الأغذية النافعة إلى الأغذية الضـارة، من الكـذب والنفـاق والريـاء، والحقد والحسـد، والعجب والكـــــــبر، والجهل والظلم، ونحو ذلك من حب المعاصي والفواحش والمنكرات.
وإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا بصّره بعيوب نفسه، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج، ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم، بسبب موت قلوبهم أو مرضها أو نقص إدراكها، بحيث لا تميز بين القبيح والمليح وما يزينها وما يشينها، وما ينفعها وما يضرها: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46)) [الحج: 46].
والله عـزَّ وجـلَّ خلق طبيعة الغضب من النـار، وغرزها في الإنسان، فإذا صدَّ الإنسان عن غرض من أغراضه، اشتعلت نـار الغضـب، وثـارت ثورانًا يغلي به دم القلب، وينتشر في العروق، ويرتفع إلى أعالي البدن كما ترتفع النار.
وقـــوة الغضب محلها القلب، ومعناهـــا: غليـــان دم القلب بطلب الانتقام، وإنما تتوجه هذه القـوة عند ثورانها إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها، وإلى التشفي والانتقام بعد وقوعها. والانتقام قوت هذه القوة وشهوتها ولا تسكن إلا به.
والأسباب المهيجة للغضب هي:
الزهو.. والعجب.. والمـزاح.. والهـزل.. والهـزء.. والتعيـير.. والغدر.. وشدة الحرص على فضول المال والجـاه.. ونحوها من الأخلاق الرديئـة.. ولا خلاص من الغضب مع بقـاء هـذه الأسباب.
فلا بـدَّ من إزالة هـذه الأسـباب المهلكة بأضـدادها المنجية:
فتميت الزهو بالتواضع.. وتميت العجب بمعرفتك بنفســك.. وتزيل الفخر بأنك من جنس عبدك.. وإنما الفخر بالفضائل.

والفخر والعجب والكبر أكبر الرذائل، وأشدها هلاكاً للعبد.
وأما المزاح فتزيله بالمهمات الدينية التي تستوعب العمــر، من الذكر والعبادة، والعلم والدعوة.
وأما الهـــــزل فتزيله بالجد في طلب الفضـــــائل، والأخلاق الحسنة، والعلوم الشرعية التي تبلغك إلى سعادة الآخرة.
وأما الهزء فتزيله بالتكرم عن إيذاء الناس، وبصـيانة النفس عن أن يُستهزأ بها.
وأما التعيير فتزيله بالحذر عن القول القبيح، وصيانة النفس عن مُرّ الجواب.
وأما شدة الحرص فتزال بالقناعة بقدر الضـرورة، طلبًا لعز الاستغناء، وترفعًا عن ذل الحاجة.
فهذا حسم لمواد الغضب، وقطع لأسبابه، حـتى لا يهيج، فيهلك صاحبه:
فـإذا جـرى سـبب هيجانـه، فعند ذلك يجب الصـبر والتثبت، حتى لا يقع ما لا تحمد عقباه.
وإنما يعـالج الغضب عند هيجانه بمعجـون العلم.. والعمـل.. والصبر.
أما العلم فيعلم العبد فضل كظم الغيــــظ، والعفو والحلم، وما في ذلك من الثواب، فتمنعه شدة الحرص على الثواب من التشفي والانتقام، فيسكن غضبه، ويخوف نفسه بعقاب اللـه، ويقـول: قـدرة الله علي أعظم من قـدرتي على هـذا الإنسان.
ويحـــذر نفسه عاقبة العـــداوة والانتقـــام، وتشـــمر العـــدو لمقابلته والسعي في هدم أغراضه، ويفكر بقبح صورته عند الغضب، وأنه كالكلب الضاري، والسبع العادي.
أما الحليم الهادي فهو كالأنبيـاء والأوليـاء في علمه وحلمـه، وكالقمر في نوره.
ويقـول لنفسـه: تـأنفين من الاحتمـال الآن، ولا تـأنفين من خــزي يــوم القيامــة، وتحــذرين من أن تصــغري في أعين الناس، ولا تحذرين من أن تصغري عند الله والملائكة، وأنه يوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه.
وأما العمل، فإنه يقول من أصابه الغضب:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فإن لم يزُلْ بذلك فاجلس إن كنت قائمًا، واضطجع إن كنت جالسًا، فإن لم يزل بذلك فليتوضأ بالماء البارد وليصلّ. وأما الصبر فيتذكر عاقبته، وثوابه الجزيل في الدنيا والآخرة.

وأما الحقد، فإن الغضب إذا لزم كظمه، لعجز عن التشفي في الحال، رجع إلى الباطن واحتقن فيه، فصار حقدًا ينشأ عنه الحسد للإنسان، وهجره، والاستصغار له، وذمه، والاستهزاء به، وإيذاؤه، ومنعه حقه من قضاء دين، أو صلة رحم، أو رد مظلمة، وكل ذلك حرام.

والحسد من نتائج الحقد، والحقد من نتائج الغضب، والحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب[61]، ولا حسد إلا على نعمة، فإذا أنعم الله على أخيك بنعمة فلك فيها حالتان:

الأولى: أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها.

والثانية: أن لا تحب زوالها عنه، ولا تكره وجودها، ولكن تشتهي لنفسك مثلها، فالأولى حرام، والثانية جائزة.

وأشد أسباب الحسد العداوة والبغضاء، فمن آذاه شخص وخالفه أبغضه قلبه، وغضب عليه وحقد عليه، وانتقم منه إن قدر.

ومنها التعزز، فإن أصاب أحد أقرانه ولاية أو مالاً أو علمًا ثقل عليه، وخاف أن يتكبر عليه، ولا يطيق تكبره فيحسده.

ومن أسباب الحسد الكبر، وهو أن يكون في طبعه أن يتكبر عليه، ويستصغره ويستخدمه، فإذا نال نعمة خاف ألا يحتمل تكبره ويترفع عن متابعته.

ومنها العجب، فيتعجب أن يفوز برتبة عالية من دونه، وهو أقل منه فيما يرى فيحسده.

ومنها الخوف من فوت المقاصد، ومنه تزاحم الضرات على مقاصد الزوجية، وتزاحم الأخوة على نيل المنزلة في قلب الأبوين.

ومنها حب الانفراد بالرياسة، وطلب الجاه لنفسه، كمن يحب أن يكون عديم النظير، ليس مثله أحد، ليقال أنه فريد

---

[61] - سنن أبى داود برقم (4905) حديث حسن

عصره.
ومنها خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله، فيضيق ذرعًا إذا سمع بأحد نال نعمة، ويفرح بإدبار أحوال الناس، نعوذ بالله من ذلك الخلق الشيطاني.
ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا، فإن الدنيا هي التي تضيق على المتزاحمين، أما الآخرة فلا ضيق فيها، ومجال المسارعة والمسابقة إلى الخيرات مفتوح لجميع العباد.
والله عزَّ وجلَّ يحدث في قلب من يشاء من عباده ما شاء، ويطلعه على أمور تخفى على غيره، وقد يمسكها عنه بالغفلة عنها، ويواريها عنه بالغين الذي يغشى قلبه، وهو أرق الحجب.. أو بالغيم، وهو أغلظ منه.. أو بالران، وهو أشدها.
فالأول: وهو الغين يقع للأنبياء والرسل، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : «**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ، فِي الْيَوْمِ، مِائَةَ مَرَّةٍ» أخرجه مسلم**[62]**.**
والثاني: وهو الغيم، يكون للمؤمنين.
والثالث: وهو الران، يكون لمن غلبت عليه الشقوة، كما قال سبحانه: (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14)) [المطففين: 14].
والحجب التي تحول بين القلب وبين الله عشرة:
الأول: حجاب التعطيل والكفر، وهو أغلظها، فلا يتهيأ لصاحب هذا الحجاب أن يعرف الله، ولا يصل إ ليه البتة.
الثاني: حجاب الشرك، وهو أن يعبد مع الله غيره.
الثالث: حجاب البدعة القولية، كحجاب أهل الأهواء.
الرابع: حجاب البدعة العملية، كحجاب أهل السلوك المبتدعين في طرقهم المخالفة للسلف الصالح.
الخامس: حجاب أهل الكبائر الباطنة، كحجاب أهل الكبر والعجب، والرياء والحسد، والفخر والخيلاء، ونحوها.
السادس: حجاب أهل الكبائر الظاهرة، وهؤلاء حجابهم أرق وأخف من حجاب أهل الكبائر الباطنة مع كثرة

---

[62](?) أخرجه مسلم برقم (2702).

عبادتهم وزهدهم كالخوارج، وكبائر هـؤلاء أقـرب إلى التوبة من كبائر أهل الكبائر الباطنة.

السابع: حجاب أهل الصغائر.

الثامن: حجاب أهل الفضلات والتوسع في المباحات.

التاسع: حجـاب أهل الغفلة عن استحضـار ما خلقـوا لـه، وما أريد منهم، وما لله عليهم من دوام ذكـــره وشـــكره وعبوديته.

العاشـر: حجـاب المجتهـدين السـالكين المسـتمرين في السير عن المقصود.

فهـذه عشـرة حجب تحـول بين القلب وبين الله سـبحانه وتعالى.

وهذه الحجب تنشأ من أربعة عناصر:

عنصر النفس.. وعنصر الشيطان.. وعنصر الهـوى.. وعنصر الدنيا.

فلا يمكن كشف هذه الحجب مع بقاء أصولها وعناصرها في القلب البتة.

وهـــذه الأربعة تفسد القـــول والعمل والقصد أن يصل إلى القلب، وما وصل إلى القلب قطعت عليه الطريق أن يصل إلى الرب.

فـإن حاربها العبـد، وخلص العمل إلى قلبه دار فيـه، وطلب النفوذ من هناك إلى الله، فإنه لا يستقر دون الوصول إليه: (وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (42)) [النجم: 42].

فإذا وصل إلى الله عـزَّ وجـلَّ أثابه عليه مزيـدًا من الإيمـان واليقين، وجمل به ظاهره وباطنه، فهداه به لأحسن الأخلاق والأعمال، وصرف عنه به سيئ الأخلاق والأعمال.

وأقـام الله سـبحانه من ذلك العمل جنـدًا يحـارب به قطـاع الطريق للوصول إليه.

فيحارب الدنيا بالزهد فيها، وإخراجها من قلبه.

ويحـارب الشـيطان بـترك الاسـتجابة لـداعي الهـوى، فـإن الشيطان مع الهدى لا يفارقه.

ويحارب الهوى بتحكيم الأمر الشـرعي المطلـق، والوقـوف مع الهدى.

ويحـــارب النفس بقـــوة الإخلاص، وتقـــديم مـــراد الله على مرادها.
وإن دار العمل في القلب، ولم يجد منفــذًا إلى اللــه، وثبت عليه النفس فأخذته وصـيرته جنـدًا لهـا، فصـالت به وعلت وطغت: (وَمَا أُبَـرِّئُ نَفْسِـي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّـوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53)) [يوسف: 53].



20- أدوية أمراض القلوب[63]

قـال الله تعـالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَـدْ جَـاءَتْكُمْ مَوْعِظَـةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِـفَاءٌ لِمَا فِي الصُّـدُورِ وَهُـدًى وَرَحْمَـةٌ لِلْمُـؤْمِنِينَ (57))   [يونس: 57].
وقال الله تعالى: (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُـرْآنِ مَا هُـوَ شِـفَاءٌ وَرَحْمَـةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82))   [الإسـراء: 82].
تنقسم أدوية أمراض القلوب إلى قسمين:
أدوية طبيعية.. وأدوية شرعية.
ومرض القلب نوعان:
الأول: مرض لا يتألم به صاحبه في الحال كمرض الجهـل، ومرض الشبهات والشهوات والشكوك، وهذا النوع هو أشد النـــوعين ألمًـــا، ولكن لفســـاد القلب لا يحس بـــالألم، ولأن ســـكر الجهل والهـــوى يـــحول بينه وبين إدراك الألم، وهو متوارٍ عنه لاشتغاله بضده.
وهـــذا أخطر المرضـــين وأصـــعبهما، وعلاجه إلى الرسل وأتباعهم، فهم أطباء هذا المرض، ولا شفاء منه إلا باتباع ما جاءوا به من الهدى.
والنوع الثاني: مرض مـؤلم له في الحـال كـالهم والغم، والحـزن والغيظ ونحوهـا، وهـذا المـرض قد يـزول بأدوية طبيعية كإزالة أسبابه، أو بالمداواة بما يضـاد تلك الأسـباب، وما يدفع موجبها مع قيامها.

---
[63] - موسوعة فقه القلوب - (ج 3 / ص 80)

فقلب الإنسان يتألم بما يتألم به بدنـه، ويشـقى بما يشـقى به البدن، وأمراض القلب الـتي تـزول بالأدوية الطبيعية من جنس أمـراض البـدن، وهـذه قد لا تـوجب وحـدها شـقاءه وعذابه بعد الموت.

وأما أمـــراض القلب الـــتي لا تـــزول إلا بالأدوية الإيمانية النبوية، فهي التي توجب له الشقاء والعذاب الـدائم، إن لم يتـداركها بالأدوية المضـادة لهـا، فـإذا اسـتعمل تلك الأدوية حصل له الشفاء.

فالغيظ مثلاً مـؤلم للقلب، ودواؤه في شـفاء غيظـه، فـإن شـفاه بحق اشـتفى، وإن شـفاه بظلم وباطل زاد مرضـه، واستحق العقوبة عليه، كمن شفى مـرض العشق بـالفجور بالمعشوق.

وكـذلك الهم والغم والحـزن من أمـراض القلب، وشـفاؤها بأضدادها من الفرح والسرور والأنس.

فإن كـان بحق شـفي القلب، وصح وبـرئ من مرضـه، وإن كـان بباطل تـوارى ذلك واسـتتر، وأعقب أمراضًـا أصـعب وأخطر.

وكذلك الجهل مـرض مـؤلم للقلب، فمن النـاس من يداويه بعلوم لا تنفـع، بل تزيـده مرضًـا إلى مرضـه، وإنما شـفاؤه وصحته بالعلوم الإيمانية النافعة.

وكذلك الشاك المرتاب في الشيء، يتألم قلبه حـتى يحصل له العلم واليقين به، ولما كـان ذلك يـوجب له حـرارة، قيل لمن حصل له اليقين ثلج صدره، وحصل له برد اليقين.

فمن أمراض القلوب ما يزول بالأدوية الطبيعية، ومنها ما لا يزول إلا بالأدوية الشرعية الإيمانية.

والقلب له حياة وموت.. ومرض وشـفاء.. وذلك أعظم مما للبدن.

وجمـاع أمـراض القلـوب هي أمـراض الشـبهات، وأمـراض الشـهوات، والقـرآن شـفاء للنـوعين، وجميع الأسقام:

ففيه من الآيـــات والـــبراهين القطعية ما يـــبين الحق من الباطل.. فـتزول أمـراض الشـبه المفسـدة للعلم والتصـور

والإدراك.. بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه.
وفيه إثبـات التوحيـد.. وإثبـات الصـفات.. وإثبـات المعـاد.. وإثبات النبوات.. وفي ذلك كله شفاء من الجهل.
وهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه والشكوك، ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه.
فمن رزقه الله تعالى ذلك أبصر الحق والباطل عيانًا بقلبـه، كما يرى الليل والنهـار، وعلم أن ما عـداه من كتب النـاس بين علـوم لا ثقة بهـا، وبين ظنـون كاذبة لا تغـني من الحق شيئًا، وبين أمور صحيحة لا منفعة للقلب فيهـا، وبين علـوم صحيحة قد وعروا الطريق إلى تحصيلها.
وأما شفاؤه لمـرض الشـهوات.. فـذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحســنة.. بــالترغيب والــترهيب.. والتزهيد في الدنيا.. والترغيب في الآخرة.. والأمثال والقصص الـتي فيها أنواع العبر والاستبصار.
فيرغب القلب السـليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه ومعــاده، ويــرغب عما يضــره، فيصــير القلب محبًا للرشد مبغضًـا للغي، ويعـود للفطـرة الـتي فطـره الله عليهـا، كما يعود البدن المريض إلى صحته.
ويتغــذى القلب من الإيمــان والقــرآن بما يزكيه ويقويــه، ويؤيده ويفرحه، ويسره وينشطه كما يتغذى البدن بما ينميه ويقويه.
وكل من القلب والبـدن محتـاج إلى أن يـتربى، فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح.
فكما أن البـدن محتـاج إلى أن يزكو بالأغذية المصـلحة لـه، والحمية عما يضره، فلا ينمو إلا بإعطائه ما ينفعــه، ومنع ما يضــره، فكــذلك القلب لا يزكو ولا ينمو ولا يتم صــلاحه إلا بذلك، ولا سبيل له إلى الوصول إلى ذلك إلا من القرآن.
ونجاسة الفــــواحش والمعاصي في القلب بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن، وبمنزلة الخبث في الذهب والفضة.
فكما أن البــدن إذا اســتفرغ من الأخلاط الرديئــة، تخلصت القــوة الطبيعية منها فاســتراحت، فعملت عملها بلا معــوق ولا ممانع فنما البدن.

فكذلك القلب إذا تخلص من الذنوب بالتوبة، فقد استفرغ من تخليطه، فتخلصت قوة القلب وإرادته للخير، فاستراح من تلك الجواذب الفاسدة، والمواد الرديئة فزكا القلب ونما، وقوي واشتد، وجلس على سرير ملكه، ونفذ حكمه في رعيته، فسمعت له وأطاعت، فصلحت المملكة.

فزكاة القلب موقوفة على طهارته، كما أن زكاة البدن موقوفة على استفراغه من أخلاطه الرديئة الفاسدة كما قال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (21)) [النور: 21].

وقال سبحانه: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10)) [الشمس: 9، 10].

والإنسان إذا اعتاد سماع الباطل وقبوله، أكسبه ذلك تحريفًا للحق عن مواضعه، فإنه إذا قبل الباطل أحبه ورضيه، فإذا جاء الحق بخلافه رده وكذبه إن قدر على ذلك وإلا حرفه.

فهذا وإخوانه من الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم، فإنها لو طهرت لما أعرضت عن الحق، وتعوضت بالباطل عن كلام الله ورسوله: (يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (41)) [المائدة: 41].

أما القلب الطاهر، فلكمال حياته ونوره وتخلصه من الأدران والخبائث لا يشبع من القرآن، ولا يتغذى إلا بحقائقه، ولا يتداوى إلا بأدويته.

وأما القلب الذي لم يطهره الله تعالى، فإنه يتغذى من

الأغذية الـتي تناسـبه، بحسب ما فيه من النجاسـة، فـإن القلب النجس كالبـدن العليل المـريض، لا تلائمه الأغذية التي تلائم الصحيح.
وطهارة القلب موقوفة على إرادة الله تعالى الذي يعلم ما في القلوب، ويعلم ما يصـلح له منها وما لا يصـلح، ومن لم يطهر الله قلبه فلا بدّ أن يناله الخـزي في الـدنيا، والعـذاب في الآخرة، بحسب نجاسة القلب وخبثه.
فالجنة دار الطيبين لا يدخلها خـبيث، ولا من فيه شـيء من الخبث، فمن تطهر في الدنيا بالإيمـان والأعمـال الصـالحة، ولقي الله طاهرًا من نجاساته دخلها بغـير معـوق؛ لأنه جـاء ربه بقلب سليم، وعمل سليم.
ومن لم يتطهر في الدنيا، فإن كانت نجاسته عينية كالكـافر لم يدخلها بحـال، وإن كـانت نجاسـته كسـبية عارضة دخلها بعد ما يتطهر في النار من تلك النجاسة، ثم يخرج منها إلى الجنة بعد طهارته.
وكذلك المؤمنون إذا جاوزوا الصـراط حبسـوا على قنطـرة بين الجنة والنار فيهذبون وينقون، ثم يـؤذن لهم في دخـول الجنة.
والله جل جلاله بحكمته جعل الـدخول عليه موقوفًا على الطهارة، فلا يدخل المصلى عليه حتى يتطهر، وكـذلك جعل الـدخول إلى جنته موقوفًا على الطيب والطهـارة، فلا يدخلها إلا كل طيب طاهر.
والـذنوب والخطايا تـوجب للقلب حـرارة ونجاسـةً وضـعفًا، فيرتخي القلب، وتضطرم فيه نار الشهوة وتنجسه.
فالخطايا والـذنوب للقلب بمنزلة الحطب الـذي يمد النـار ويوقدها.
ولـذلك كلما كـثرت الخطايا اشـتدت نـار القلب، واشـتد ضعفه.
والماء يغسل الخبث، ويطفئ النار.
فإن كان باردًا أورث الجسم صلابة وقوة، وإن كان معه ثلج وبرد كان أقـوى في التبريد وصـلابة الجسم وشـدته، فكـان أذهب لأثر الخطايا والذنوب.

فـــالقلب والبـــدن بأشد الحاجة إلى ما يطهرهما ويبردهما ويقويهما، ولذلك كان النبي صـلى الله عليه وسـلم يقـول في دعـاء الاسـتفتاح في الصـلاة: « اللَّهُمَّ بَاعِـدْ بَيْنِى وَبَيْنَ خَطَايَـاىَ كَمَا بَاعَـدْتَ بَيْنَ الْمَشْـرِقِ وَالْمَغْـرِبِ ، اللَّهُمَّ نَقِّنِى مِنَ الْخَطَايَا كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الـــــدَّنَسِ ، اللَّهُمَّ اغْسِلْ خَطَايَاىَ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ » . **متفق عليه**[64].

وقلوب البشر لها آفات وعلل، وأمرض وأسقام.

والحسد من الأمـراض العظيمة الـتي تصـيب القلـوب، ولا تداوي أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل.

فـالعلم النـافع لمـرض الحسـد، هو أن يعـرف الإنسـان أن الحسد ضرر عليه في الدنيا والدين.

أما في الدين فهو أنك سخطت قضاء الله تعـالى، وكـرهت نعمته التي قسمها بين عباده، وعدله الـذي أقامه في ملكه بحكمتـه، فاسـتنكرت وكـرهت واستبشـعت ما قضـاه الله وقدّره واختاره لعبده.

وهذه جناية كبرى على التوحيد والإيمان والدين.

وأما كونه ضررًا عليك في الدنيا، فهو أنك تتـألم في الـدنيا، أو تتعــذب بــه، فالــذين تحســدهم لا يخليهم الله من نعم يفيضها عليهم، فلا تزال تتألم بكل نعمة تراها، وتتعذب بكل بلية تصرف عنهم، فتبقى مغمومًا محرومًــا، قد نــزل بك ما تشتهيه لأعدائك.

فهـذه هي الأدوية العلميـة، فـإذا فكر الإنسـان فيها بـذهن صـــافٍ، انطفـــأت نـــار الحسد من قلبـــه، وعلم أنه مهلك لنفسه، ومفرح عدوه، ومسخط ربه، ومنغص عيشه.

وأما العمل النافع فيه، فهو أن يحكم الحسـد، ويكلف نفسه نقيضه، فـإن حمله الحسد على القـدح في محسـوده، كلف لسانه المدح له، والثناء عليه.

وإن حمله الحسد على التكبر عليه، ألزم نفسه التواضع له، والاعتذار إليه.

وإن بعثه على كف الإنعـام عليـه، ألـزم نفسه الزيـادة في

---

[64](?) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (744)، واللفظ له، ومسلم برقم (598).

الإنعام عليه، فإذا عـرف المحسـود ذلك طلب قلبه وأحبـه، وجاءت الموافقة التي تقطع مادة الحسد.
فهذه أهم أدوية الحسد، وهي نافعة جـدًا، إلا أنها مـرة على القلـوب جـدًا، ولكن النفع في الـدواء المـر، فمن لم يصـبر على مرارة الدواء، لم ينل حلاوة الشفاء.
ومن أمـراض القلـوب حب الـدنيا فكـرًا.. وطلبًـا.. وتمتعًـا، والإعـراض عن الآخـرة، ومن اتخذ الـدنيا ربًا اتخذته عبـدًا، والعاقل من يرضى منها بالقليل مع سـلامة الـدين، كما رضي أهل الدنيا بقليل الدين مع سلامة الدنيا.
ومن أحب شيئًا أكـثر من ذكـره، وبقـدر ما يحـزن الإنسـان للدنيا يخرج هم الآخرة من قلبه.
وبقدر ما يحزن العبد للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبه.
فالدنيا والآخرة ضُرَّتان.. فبقـدر ما ترضى إحـداهما تسـخط الأخرى، وبقدر ما تعمر إحـداهما تهـدم الأخـرى.. وبقـدر ما تقدم إحداهما تؤخر الأخرى.
وطالب الدنيا مثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شـربًا ازداد عطشًا، حتى يقتله الشرب.
والدنيا سريعة الفناء، تعد بالبقاء ثم تخلف في الوفاء، تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرة، وهي سائرة سيرًا عنيفًـا، وهي كالظل فإنه متحرك ساكن، متحرك في الحقيقة ساكن في الظاهر.
والدنيا كـالأرض إن مشـيت عليها حملتـك، وإن حملتها على رأسك قتلتك.
وهي دار ضيافة سـبلت على المجتـازين لا على المقيمين.. ودار عارية لا دار ملـك.. ودار فنـاء لا دار بقـاء.. ودار زوال والآخرة هي دار القرار.
والعاقل من صـرف همه عنها حـتى لا يتـألم عند فراقهـا، ويأخذ منها بقدر الحاجة ما يستعين به على عبادة ربه.
وأما الشـهوات فيقمع منها ما خـرج عن طاعة الشـرع والعقـل، ولا يتبع كل شـهوة، ولا يـترك كل شـهوة، بل يتبع العدل، وخير الأمور أوسطها.
ولا يـترك كل شـيء في الـدنيا، ولا يطلب كل شـيء من

الـدنيا، بل يعلم مقصـود كل ما خلق من الـدنيا، ويأخذ منه قدر حاجته.

فيأخذ من القـوت ما يقـوى به البـدن على العبـادة.. ويأخذ من المســـكن ما يكن من الحر والـــبرد.. ويحفظ الأهل والمـال من اللصـوص.. ويسـتقل من المـركب ما يحمله لحاجاته من غير إسراف ولا مخيلة.. ويلبس من الكسوة ما يسـتر عورتـه.. ويتجمل به في صـلاته، ويـتزين به في العيد ولقاء الضيوف.

حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن أقبل على الله بكليتـه، واشـتغل بالـذكر والفكر والطاعـات في جل وقتـه، وكل ميسر لما خلق له، والله شكور حليم.

ومن أمراض القلب: الحرص والطمع.

فالمـال وسـيلة إلى مقصـود صـحيح، ويصـلح أن يكـون آلة ووسيلة إلى مقاصد فاسـدة، فهو بحسب اسـتخدامه يكـون محمودًا أو مذمومًا.

ولما كـانت الطبـاع مائلة إلى اتبـاع الشـهوات القاطعة عن سـبيل اللـه، وكـان المـال مسـهلاً وآلة إليهـا، عظم الخطر فيما يزيد على قدر الكفاية من المال.

فعلى العبد القناعة، فإن تشـوف إلى الكثـير أو طـول أمله فاته عز القناعة، وتدنس لا محالة بالطمع وذل الحرص.

وجــره الحــرص والطمع إلى مســاوئ الأخلاق، وارتكــاب المنكرات الخارقة للمروءات، والوقوف بأبواب اللئام.

وقد جبل الآدمي على الحرص والطمـع، ولا يملأ جـوف ابن آدم إلا التراب.

ودواء الحرص والطمع:

الاقتصـاد في المعيشـة.. والرفق في الإنفـاق.. والرضا بما قسم الله له.

فـإذا تيسر للعبد في الحـال ما يكفيـه، فلا يضـطرب لأجل المستقبل، ويعينه على ذلك قصر الأمل، واليقين بأن الرزق الذي قدر له لا بدَّ أن يأتيه وإن لم يشتد حرصه، وأن يعرف ما في القناعة من عز الاسـتغناء، وما في الحـرص والطمع من الذل.

وبــذلك تنبعث رغبته في القناعــة، لأنه في الحــرص لا يخلو من تعب، وفي الطمع لا يخلو من ذل، وكلاهما مذموم.
وينظر في أحواله المتنعمين من اليهــود والنصــارى وأراذل الناس.
ثم ينظر في أحــوال الأنبيـاء والأوليـاء، ويخـير نفسه بين أن يكون مشابهًا لأراذل الناس، أو مقتديًا بأعز الخلق عند الله، ويفهم ما في جمع المــال من الخطــر، وما فيه من خــوف الســرقة والنهب، والضــياع والفســاد، وما في خلو اليد من الراحة والأمن والفراغ.
وبهــذه الأمــور يقــدر على التخلص من الحــرص والطمــع، وعلى اكتساب خلق القناعة.
والمال إن كان مفقودًا فينبغي أن يكون حــال العبد القناعة وقلة الحــرص، وإن كــان موجــودًا فينبغي أن يكــون حاله الإيثـار والسـخاء، واصـطناع المعـروف، والتباعد عن الشح والبخل، فإن الجود والسخاء من أخلاق الأنبياء والفضلاء.
ومن أمراض القلب: البخل والشح.
وسببهما حب المال، ولحب المال سببان:
أحدهما: حب الشهوات التي لا وصـول إليها إلا بالمـال مع طـول الأمــل، وإن كــان قصـير الأمل ولكن له أولاد، أقــام الولد مقام طول الأمل.
الثــاني: أن يحب عين المــال، فمن النــاس من يملك ما يكفيه بقية عمره وهو شيخ بلا ولد، ومعه أمـوال كثـيرة، ولا تســمح نفسه بــإخراج الزكــاة، ولا بمــداواة نفسه منها عند المـرض، بل صـار محبًا لهـا، عاشـقًا لهـا، يلتذ بوجودها في يده، ويكنزها تحت الأرض أو في مكــان أمين، وهو يعلم أنه يموت فتضيع أو يأخذها غيره.
ومع هــذا فلا تســمح نفسه بــأن يأكل أو يتصــدق أو يعــالج نفسه منها.
وهذا مرض للقلب عظيم.. عسير العلاج.. لا سيما في كــبر السن.
فعلاج كل علة في القلب بمضـــادة ســـببها.. فتعـــالج حب الشـهوات بالقناعة باليسـير وبالصـبر.. ويعـالج طـول الأمل

بكـثرة ذكر المـوت.. ويعـالج التفـات القلب إلى الولد بـأن خالقه خلق معه رزقه.

ومن الأدوية النافعة: كثرة التأمل في أحوال البخلاء، ونفرة الطبع عنهم، واســتقباحه لهم، والتفكر في مقاصد المــال، وأنه لماذا خلق؟.

وما هو ثواب إنفاقه في سبيل الله ومرضاته؟.

فـإذا عـرف الإنسـان هـذا، وعـرف أن البـذل خـير له من الإمساك في الدنيا والآخرة، هاجت رغبته في البذل إن كان عاقلاً.

فـإن هـاجت شـهوة الإمسـاك، قمعها برؤية ثمـرة الإنفـاق وثوابه، وحسن عاقبته.

ومن أمراض القلب: الرياء والسمعة.

والريــاء: مشــتق من الرؤيــة، والســمعة: مشــتقة من السماع.

والرياء: أصـله طلب المنزلة في قلـوب النـاس بـإيرائهم خصال الخير، والمراءى به كثير، وهو كل ما يـتزين به العبد للناس.

والرياء يحصل بستة أشياء هي:

البدن.. واللباس.. والقول.. والعمل.. والأتباع.. والأشياء.

وكذلك أهل الدنيا يراؤون بهذه الأسباب.

فالرياء في الـدين بالبـدن يكـون بإظهـار النحـول والصـفار ليوهم بذلك شدة الاجتهاد، وعظم الحزن على أمر الدين.

والرياء بالهيئة والزي بشعث الـرأس، وإطـراق الـرأس في المشي، ولبس غليظ الثياب، وتـرك تنظيف الثيـاب، وتـرك الثوب مخرقًا، كل ذلك يرائي به ليظهر أنه متبع للسنة.

وأما الريـــاء بـــالقول فيكـــون بالوعظ والتـــذكير، والنطق بالحكمة، وحفظ الأخبار والآثار لأجل الـبروز في المحـاورة، وإظهارًا لغريزة العلم، وتحريك الشفتين بالـذكر في محضر الناس، ونحو ذلك.

وأما المـراءاة بالعمل فكمـراءاة المصـلي من حوله بطـول القيام والركوع والسجود، وإطراق الرأس، وكـذلك بالصـوم والصدقة، وإطعام الطعام ونحو ذلك.

وأما المراءاة بالأصحاب والـزوار كالـذي يتكلف أن يسـتزير عالمًا من العلمــاء ليقــال إن العــالم فلانًا قد زار فلانًــا، أو عابـدًا من العبـاد، ليقـال إن أهل الـدين يتـبركون بزيارتـه، ونحو ذلك.
فالرياء محبط للأعمال، وسبب للمقت عند الله تعالى، وهو من كبائر الذنوب والمهلكات.
وما هذا وصفه فجدير بالعاقل التشـمير عن سـاق الجد في إزالته، وذلك بقلع عروقه واستئصال أصوله.
وأصـله: حب المنزلة والجـاه عند النـاس، والفـرار من ألم الذم، والطمع فيما في أيدي الناس.
فيعلم أن طلب المنزلة والجـــاه عند الله بالطاعـــة، أعظم وأولى من طلبها عند الناس بالرياء والنفاق.
ويعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب بـالمنع والإعطـاء، وأن الخلق كلهم مضطرون إليه سبحانه، فلا رازق إلا اللــه، ومن طمع في الخلق لم يخلُ من الذل والخيبـة، وإن وصل إلى المراد لم يخلُ عن المنة والمهانة، فكيف يـترك ما عند الله لذلك.
وأما ذمهم فلم يحــذر منــه؟.. ولا يزيــده ذمهم شــيئًا ما لم يكتبه الله عليه، ولا يعجل أجلـه، ولا يـؤخر رزقـه، ولا يجعله من أهل النار إن كان من أهل الجنة.
وما يعرض من الريـاء أثنـاء العبـادة لا بـدَّ أنه يشـمر لدفعه وقهره، بذكر ومراعاة باطن العبادة وظاهرها.
ففي إسرار الأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء.
وفي الإظهـار فائـدة الاقتـداء، وتـرغيب النـاس في الخـير، ولكن فيه آفة الرياء.
والسر أحــرز العملين، ولكن في الإظهــار فائــدة الاقتــداء، وفي كل خــير، وذلك يختلف بــاختلاف الأحــوال والأعمــال والأشـخاص: (الَّذِينَ يُنْفِقُـونَ أَمْـوَالَهُمْ بِاللَّيْـلِ وَالنَّهَـارِ سِـرًّا وَعَلَانِيَــةً فَلَهُمْ أَجْــرُهُمْ عِنْــدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَــوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (274)) [البقرة: 274].
وقــال الله ســبحانه: (إِنْ تُبْــدُوا الصَّــدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَــرَاءَ فَهُــوَ خَيْــرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ

سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (271)) [البقرة: 271].
ومن أعظم أمراض القلوب: الكبر والعجب.
والكبر ينقسم إلى ظاهر وباطن.
فالباطن هو خلق في النفس، والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح، وهي ثمرات ذلك الخلق.

وعلامة المتكبر:

إن حاج أحدًا أنف أن يرد عليه.. وإن وعظه أحدٌ استنكف من القبول.. وإن وعظ عنّف في النصح.. وإن رُد عليه شيء من قوله غضب.. وإن علم لم يرفق بالمتعلمين.. واستذلهم وامتنّ عليهم.. وإن رأى لمن دونه تكريماً حقد عليه.
ويحب قيام الناس له أو بين يديه.. ولا يمشي إلا ومعه غيره يمشي خلفه.. ويحب أن يثنى عليه في المجالس.. وأن يصدر في المجالس.
فهذا داء الكبر، وفيه يهلك الخواص من الخلق، وقلما ينفك عنه الزهاد والعبّاد والعلماء والولاة فضلاً عن عوام الخلق.
ولا يتكبر إلا من استعظم نفسه، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال.

وجماع ذلك يرجع إلى أمرين:

كمال ديني.. وكمال دنيوي.
فالديني هو العلم والعمل.. والدنيوي هو النسب، والمال، والجمال، والقوة، والذكاء، وكثرة الأنصار ونحو ذلك.
فالكبر استعظام النفس، ورؤية قدرها فوق قدر الغير، وهذا الشعور الباطن له موجب واحد، وهو العجب الذي يتعلق بالمتكبر، فإنه إذا أعجب بنفسه أو بعلمه أو بعمله، أو بشيء من أسبابه، استعظم نفسه وتكبر.
فالعجب يورث كبر الباطن، وكبر الباطن يثمر التكبر الظاهر في الأقوال والأعمال والأحوال: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (60)) [غافر: 60].
و عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ « يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

أَمْثَالَ الذَّرِّ فِى صُوَرِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِى جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ تَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةِ الْخَبَالِ ». **أخرجه أحمد والترمذي** [65]**.**

ولما كان الكبر من المهلكات، ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه، وإزالته واجبة، وهو لا يزول بمجرد التمني، بل بالمعالجة، واستعمال الأدوية القامعة له، وذلك يتم بأمرين:

أحدهما: استئصال أصله، وقلع شجرته من مغرسها في القلب، وذلك بأن يعرف نفسه، ويعرف ربه تعالى، ويكفيه ذلك في إزالة الكبر.

فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة، علم أنه أذل من كل ذليل، وأقل من كل قليل، وأنه لا يليق به إلا التواضع والذلة والمهانة.

وإذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله وحده لا شريك له.

ثم يتواضع لله بالفعل، ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين.

وأما علاج التكبر بالأسباب المذكورة السابقة:

فيعلم نسبه الحقيقي، ويذكر أباه وجده، فإن أباه القريب نطفة قذرة، وجده البعيد تراب ذليل.

ومن تكبر بجماله فدواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء، ولا ينظر إلى الظاهر نظر البهائم، ومهما نظر في باطنه رأى من القبائح ما يكدر عليه تعززه بالجمال.

فالأقذار في جميع أجزائه:

البول في مثانته.. والرجيع في أمعائه.. والمخاط في أنفه.. والبزاق في فيه.. والدم في عروقه.. والصديد تحت بشرته.. والصنان تحت إبطه.. والوسخ في أذنيه.. ورائحة العرق تنبعث من جلده.

---

[65](?)الترمذي برقم (2680) وأخرجه أحمد برقم (6677) حسن.
وأخرجه الترمذي برقم (2492)، وهذا لفظه، صحيح سنن الترمذي رقم (2025).

فهل لأحد أن يتكبر بعد هذا؟.
وأما التكــبر بــالقوة والأيــدي، فيمنعه منه علمه بما ســلط عليه من العلل والأمـــراض، وأنه لو اعتل عـــرق واحد من بدنه، لصار أعجز من كل عاجز، وأذل من كل ذليل.
ثم إنه لا يطيق شـوكة، ولا يقـاوم بقـة، ولا يـدفع عن نفسه ذبابة، فلا ينبغي أن يفتخر بقوته وهذه حاله.
ثم إن قوي الإنسان فلا يكـون أقـوى من حمـار أو بقـرة أو جمل.
وأي افتخــار في صــفة يســبقك فيها البهــائم؟.. ويأكل بها القوي الضعيف؟.
أما الغنى وكثرة المال، وفي معناه كـثرة الأتبـاع والأنصـار، فكل ذلك تكبر خارج عن ذات الإنسان.
وهذا أقبح أنواع الكبر.
فــإن المتكــبر بماله كأنه متكــبر بفرسه وداره، ولو مــات فرسه وانهدمت داره لعاد ذليلاً.
والمتكبر بمعرفة السلطان وتمكينه له على وجل، فلو تغـير عليه كان أذل الخلق.
أما الكبر بالعلم، فهو أعظم الآفات، وأغلب الأدواء، وأبعدها عن قبول العلاج إلا بجهد جهيد، وتعب شديد، لأن قدر العلم عظيم عند اللـــه، عظيم عند النـــاس، وللعلم طغيـــان في النفوس كطغيان المال.
ولن يقــدر العــالم على دفع الكــبر إلا أن يعلم أن حجة الله على أهل العلم آكـــد، وأنه يحتمل من الجاهل ما لا يحتمل عشـــره من العـــالم، إذ من عصى الله تعـــالى عن معرفة وعلم فجنايته أفحش وذنبه أعظم من الجاهل.
وأن يعــرف كــذلك أن الكــبر لا يليق إلا بالله الملك العزيز الجبار المتكبر وحـده، وأنه إذا تكـبر صـار ممقوتًا عند اللـه، لأن اللائق بالمخلوق الضـعيف العـاجز التـذلل والخضـوع لا الكبر.
وأما التكبر بالورع والعبادة فـذلك فتنة عظيمة على العبـاد، وسبيله أن يلزم قلبه التواضع لسـائر الخلـق، ويعلم أن من تقـدم عليه بـالعلم لا ينبغي أن يتكـبر عليه كيفما كـان، لما

عرفه من فضيلة العلم.
والعجب من أمراض القلوب، وهو يـدعو إلى الكـبر، ويـدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها، لظنه أنه مستغنٍ عن تفقـدها، وما يتـذكره منها يستصـغره ولا يسـتعظمه فلَا يتداركـه، بل يظن أنه يغفر له.
وأما العبادات والأعمال فإنه يستعظمها ويستعلي بها، ويمن على الله بفعلهـــا، وينسى نعمة الله عليه بـــالتوفيق لهـــا، والتمكين منها، ثم إذا أعجب بها عمي عن آفاتها، والأعمـال ما لم تكن خالصة لله، نقية من الشوائب، قلما تنفع.
والمعجب يغــتر بنفسه وبرأيــه، ويــأمن مكر الله وعذابــه، ويظن أنه عند الله بمكــــــــان، وأن له عند الله منّة وحقًا بأعماله التي هي نعمة من نعمه.
ويخرجه العجب إلى أن يثني على نفسه ويحمدها ويزكيهــا، وإن أعجب بعلمه ورأيه وعقله منعه ذلك من الاســــتفادة، ومن الاستشارة والسؤال، فيستبد بنفسه ورأيه، ويسـتنكف عن سؤال من هو أعلم منـه، ويسـتجهل غـيره، ويصر على خطئه.
فإن كان في أمر دنيوي أخفق فيـه، وإن كـان في دين هلك به.
ومن أعظم آفات العجب أنه يفتر عن السعي، لظنه أنه قد فـاز، وأنه قد اسـتغنى، وهو الهلاك الصـريح الـذي لا شـبهة فيه.
وعلاج العجب:
أن من أعجب ببدنه في جماله وهيئتـــه.. وقوته وصـــحته.. وحسن صوته وصـورته.. أن يعلم أن ذلك كله نعمة من الله تعـالى عليــه.. وواجب النعم الشــكر للمنعم.. وأن يعلم أن النعم عرضة للـــزوال كـــالأنفس.. وعلاجه بما ذكرنـــاه في الكـبر.. وأن يعلم أن الوجـوه الحسـان.. والأبـدان الناعمة سوف تتمـزق في الـتراب.. وسـوف تنتن في القبـور حـتى تستقذرها الطباع.
وعلاج العجب بالعقل والفطنة والذكاء.
أن يعلم أن ذلك نعمة من الله فليشكر الله عليهــا.. ويتفكر

أنه بأدنى مرض يصيب دماغه يوسوس ويجن، ويضـحك منه الخلق.
وعلاج العجب بالنسب الشريف.
أن يعلم أنه مهما خالف آبـاءه في أفعـالهم وأخلاقهم، وظن أنه يلحق بهم فقد جهـــل، فليتشـــرف بما شـــرفوا به من الإيمان والأخلاق والتقوى.
ومن أعجب بكــثرة العــدد من الأولاد والخـــدم والغلمـــان والأنصار.
فعلاجــه: أن يتفكر في ضــعفه وضــعفهم، وأنهم كلهم عبيد عجزة، لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا.
ثم كيف يعجب بهـــؤلاء وهم ســـيفترقون عنه إذا مـــات، ويهربون منه يوم القيامة؟.
ومن أعجب بالمال وافتخر به فعلاجـه: أن يتفكر في آفـات المـال، وكـثرة حقوقـه، وعظم غوائلـه، وينظر إلى فضـيلة الفقراء، وسبقهم إلى الجنة يـوم القيامـة، ويعلم أن المـال غـاد ورائح لا أصل لـه، وأن في اليهـود والكفـار والفسـاق واللئام من يزيد عليه في المال، وغاية المـال بلا إيمـان أن يكون كقارون الذي خسف الله به وبداره الأرض.
ومن أعجب برأيه الخطأ فعلاجـــــه: أن يعلم أن جميع أهل البدع والضلال، إنما أصروا عليها، لعجبهم بآرائهم، وتعصبهم لها.
وعلاج هذا العجب أشد من علاج غـيره، لأن صـاحب الـرأي الخطأ جاهل بخطئه، ولو عرفه لتركه، ولا يعالج الداء الـذي لا يعرف، والجهل داء لا يعرف، فعسرت مداواته جدًا.
فعلاجه أبدًا أن يكون متهمًا لرأيه لا يغتر به، إلا أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقلي صحيح.
ومن أمراض القلب: الغرور.
والغرور: هو سـكون النفس إلى ما يوافق الهـوى، ويميل إليه الطبع، عن شبهة وخدعة من الشيطان.
فمن اعتقد أنه على خـــير إما في العاجل أو في الآجل عن شـبهة فاسـدة فهو مغـرور، وأكـثر النـاس مغـرورون، وإن اختلفت أصـــناف غـــرورهم، وأشـــدهم غـــرورًا الكفـــار..

والعصاة.. والفساق.
فالكفار منهم من غرته الحياة الدنيا، ومنهم من غرَّه بالله الغَرور كما قال سبحانه: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (5)) [فاطر: 5].
فالذين غرتهم الحياة الدنيا قالوا: النقد خير من النسيئة، والدنيا نقد، والآخرة نسيئة، فهي إذاً خير، فلا بدَّ من إيثارها.
وقالوا: اليقين خير من الشك، ولذات الدنيا يقين، ولذات الآخرة شك، فلا نترك اليقين بالشك.. فانظر كيف صاغ لهم الشيطان هذه المقدمات التي جرهم بها إلى النار؟
وعلاج هذا الغرور والجهل بالإيمان والتصديق بما جاء عن الله ورسوله.
وأما غرور الكفار بالله فقولهم: إنه لو كان لله معاد فنحن أحق به من غيرنا، ونحن أوفر حظًا فيه وأسعد حالاً: (وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (35)) [سبأ: 35].
وأما غرور العصاة من المؤمنين فهو قولهم: إن الله كريم، وإنا نرجو عفوه، واتكالهم على ذلك، وإهمالهم الأعمال، وظنهم أن الرجاء مقام محمود في الدين، وأن رحمة الله واسعة وكرمه عميم، وربما كان رجاؤهم مستندًا إلى صلاح الآباء، وعلو مرتبتهم.
والمغرورون من البشر أصناف، والأصناف فرق ودرجات:
فأولهم: أهل العلم، والمغترون منهم فرق:
ففرقة أحكموا العلوم الشرعية والعقلية واشتغلوا بها، وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها من المعاصي، وإلزامها الطاعات، واغتروا بعلمهم، وظنوا أنهم عند الله بمكان، ولو كانوا مقصرين في العمل.
وفرقة أحكموا العلم والعمل، فواظبوا على الطاعات الظاهرة، وتركوا المعاصي، إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم، ليمحوا عنها الصفات المذمومة عند الله من الكبر والحسد

والرياء، وطلب الرياسة والشهرة في البلاد والعباد، فهـؤلاء زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم.

وفرقة علموا أن هذه الأخلاق مذمومة من جهة الشـرع، إلا أنهم لعجبهم بأنفسـهم يظنـون أنهم منفكـون عنهـا، وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بـذلك، وإنما يبتلى به العـوام دون من بلغ مبلغهم في العلم، ثم إذا ظهرت عليهم مخايل الكبر والرياسة، وطلب العلو والشرف قـالوا: ما هـذا كـبر، وإنما هو طلب عز الدين، وإظهار شرف العلم، ونصرة دين اللـه، ونسي هـؤلاء ما عليه النـبي صـلى الله عليه وسـلم وأصحابه من التواضع والتبذل، والقناعة ولين الجانب.

ونسي المغرور من هؤلاء أن عدوه الذي حذره الله منه هو الشـيطان.. وأنه يفـرح بما يفعله ويسـخر بـه.. وينسى أن النبي صـلى الله عليه وسـلم بمـاذا نصر الـدين؟.. وبمـاذا أرغم الكافرين؟.. وبماذا جذب قلوب العالمين؟.

وفرقة أخـرى أحكمـوا العلم والعمـل، وطهـروا الجـوارح، وزينوها بالطاعـات، واجتنبـوا المعاصـي، وتفقـدوا أخلاق النفس، وصـفات القلب من الريـاء والحسد والكـبر وطلب العلـو، وجاهـدوا أنفسـهم على التـبري منهـا، وقلعـوا من القلوب منابتها القوية.

ولكنهم بعد مغـــرورون، إذ بقيت في زوايا القلب من خفايا مكايد الشيطان وخـداع النفس ما دق وغمض مدركـه، فلم يفطنوا لها وأهملوها.

فالعـالم قد يفعل كل ذلـك، ويغفل عن المراقبة للخفايـا، فـتراه يسـهر ليلـه، ويتعب في نهـاره في جمع العلـوم وترتيبهـا، وتحسـين ألفاظها ونشـرها، وهو يـرى أن باعثه الحرص على إظهار دين الله ونشر شريعته.

ولعل باعثه الخفي: هو طلب الـذكر، وانتشـار الصـيت في الأطـراف، وكـثرة الرحلة إليه من الآفـاق، وانطلاق الألسنة عليه بالثناء، والمدح بالزهد والورع والعلم.

فنسـأل الله السـلامة، وحسن الإخلاص، وحسن العمـل، ابتغاء وجهه سبحانه.

وفرقة اشـتغلوا بعلم الكلام، وفنـون الجـدل والمنـاظرات،

والمجادلة في الأهواء، فتقطعت أعمارهم في تعلم الجدل، وهذيانات المبتدعة، وأهملوا أنفسهم وقلوبهم، حـتى عميت عليهم ذنوبهم وخطاياهم الظاهرة والباطنة.
وأحدهم يظن أن اشتغاله بالجدل أولى وأقرب وأفضل عند الله.
ومجموعة أخـرى اشـتغلوا بالوعظ والتـذكير، وأعلاهم رتبة من يتكلم في أخلاق النفس، وصـفات القلب من الخـوف والرجـاء، والصـبر والشـكر، والإخلاص واليقين، وهم مغرورون، يظنـون أنهم إذا تكلمـوا بهـذه الصـفات، ودعـوا الخلق إليهـا، فقد صـاروا موصـوفين بهـذه الصـفات، وهم منفكون عنها عند الله، إلا عن قدر يسير لا ينفك عنه عـوام المسلمين.
وغـرور هـؤلاء أشد الغـرور، لأنهم معجبـون بأنفسـهم غاية الإعجاب، ويظنـون أنهم ما تبحـروا في علم المحبة إلا وهم محبون لله، وهكذا.
فالمسكين بهذه الظنون يـرى أنه من الراضـين بقضـاء الله وهو من الساخطين، ويرى أنه من المتوكلين على الله وهو من المتكلين على العز والجاه والمال والأسباب، ويـرى أنه من المخلصين وهو من المرائين.
وفرقة أخـرى عـدلوا عن المنهـاج الشـرعي في الوعظ والتعليم، فاشـتغلوا بالطامـات والشـطح، وتلفيق الكلمـات طلبًا للإغـراب، وشـغفوا بطيـارات النكت والسـجع في الألفـاظ، وغرضـهم أن يكـثر النـاس حـولهم، ويكـثر في مجالسـهم الزعـاق والصـراخ، ولو على أغـراض فاسـدة، فهؤلاء شياطين الإنس قد ضلوا وأضلوا عن سواء السـبيل، وما يفسدونه أكثر مما يصلحونه.
وطائفة أخرى قنعـوا بحفظ كلام الزهـاد وأحـاديثهم في ذم الـدنيا، وتكلمـوا به على المنـابر وفي الأسـواق ومجـامع الناس.
وكل منهم يظن أنه تمـيز بهـذا القـدر، وأنه قد أفلح ونـال الغرض، وصار مغفـورًا لـه، وأمن عقـاب اللـه، من غـير أن يحفظ ظـاهره وباطنه عن الآثـام، لكونه يظن أن حفظه

لكلام أهل الدين يكفيه، وغـرور هـؤلاء أظهر من غـرور من قبلهم.
وطائفة اسـتغرقوا أوقـاتهم في علم الحـديث في سـماعه، وجمع الروايــات الكثــيرة منــه، وطلب الأســانيد الغريبة العالية.
فهمة أحدهم أن يدور في البلاد، ويـرى الشـيوخ ليقـول: أنا أروي عن فلان، وفلان، وفلان، وفلان.
فهؤلاء أكثرهم مغـرور ليس معه إلا النقـل، يحفظ الأسـانيد والروايـــات، ويظن أنه يكفيه العمل بما يـــروى ويحفـــظ، ويتركون العلم الـذي يحصل به علاج القلب من معرفة الله وأسـمائه وصـفاته وأفعالـه، ووعـده ووعيـده، والعلم الـذي يحصل به معرفة الدين وأحكامه والعمل به.
ويشتغلون بكـثرة الأسـانيد، وتعـدد الطـرق، وطلب العـالي منها، همة أحـدهم أن يقـول: معي من الإسـناد ما ليس مع غيري.
وهل نزل الوحي إلا للعلم والعمل والتعليم للدين؟.
فما أشد غرور هؤلاء، والأمة تحتاج من هـؤلاء من كـان تقيًا عاملاً بعلمه.
وطائفة أخرى اشـتغلوا بعلم النحو واللغة والشـعر وغـريب اللغة، وزعموا أنهم من علماء الأمة، إذ قوام الدين بالكتاب والسنة، وقوام الكتـاب والسـنة بعلم اللغة والنحـو، فـأفنى هؤلاء أعمارهم في طلب ذلك.
فهؤلاء كمن يفني عمـره في تعلم الخط وتحسـين الكتابـة، ويزعم أن العلـوم لا يمكن حفظها إلا بالكتابـة، وكـان يكفيه معرفة أصل الخط والباقي زيادة.
فهؤلاء مغرورون أضاعوا أوقاتهم وأوقات غيرهم، واشتغلوا في غير ما خلقوا له، فيكفيهم من اللغة معرفة الغريب في القرآن والسنة، ومن النحو ما يتلعق بالقرآن والحديث.
فأما التعمق فيه إلى درجـــات لا تتنـــاهى، فهو فضـــول مسـتغنى عنـه، يضـيع الأوقـات، ويشـغل عن أداء الحقـوق والواجبات.
والصنف الثاني: أرباب العبادة والعمل.

والذين غرهم الشيطان منهم فرق كثيرة:
فمنهم من غروره في الصلاة.. ومنهم من غـروره في تلاوة القرآن.ـ ومنهم من غروره في الحج أو الصيام أو الأذكــار.. ومنهم من غـــروره في الوضـــوء.. ومنهم من غـــروره في الزهد.
وكل عامل غالبًا لا يخلو من غرور إلا من رحم الله.
فمنهم فرقة أهملوا الفرائض، واشتغلوا بالنوافل والفضائل، وربما تعمقـوا في الفضـائل حـتى وصـلوا إلى حد العـدوان والسرف، كمن غلبه الوسواس في الوضوء والغسل.
وفرقة أخـرى غلب عليها الوسـواس في الصـلاة، فلا يدعه الشـيطان يعقد نية صـحيحة، بل يشـوش عليه حـتى تفوته الجماعة أو الركعــة، ويخــرج الصــلاة عن وقتهــا، وإن كبَّر شككه الشيطان في صحة نيته.
ومنه من تغلب عليه الوسوسة في إخــراج حــروف الفاتحة وســائر الأذكــار من مخارجهــا، فلا يــزال يحتــاط ويــردد التشديدات لا يهمه غيره، ذاهلاً عن معاني الآيات، والاتعاظ بها وفهمها، وهذا من أقبح أنواع الغرور، فـإن الله لم يكلف عباده في تلاوة القرآن إلا بما جرت به عادتهم في الكلام.
وطائفة اغتروا بتلاوة القرآن يهذونه هـذًا، وربما ختمـوه في اليوم والليلة مـرتين، يتلـوه هـذا المغـرور، وقلبه في أودية الأمـاني يتجـول، فهو مغـرور يظن أن المقصـود من إنـزال القرآن الهمهمة مع الغفلة عن تدبره والعمل بموجبه.
وفرقة أخرى اغتروا بالصوم، وربما صاموا الدهر، أو صاموا الأيام الشريفة، لكن صام الظاهر منهم دون الباطن.
فأطلقوا ألسنتهم في كل شيء من الهذيان والغيبة، وملؤوا بطــونهم بــالحرام عند الإفطــار، وقعــدوا عن الــدعوة إلى الحق، ونشر الهداية.
وكذلك الحج غـرهم الشـيطان فحجـوا بـزادٍ حـرام، وعليهم من المظـــالم والـــديون ما عليهم، وأشـــغلهم بـــالرفث والفسوق والخصام.
وفرقة أخرى أخذت في طريق الحسبة، والأمر بـالمعروف، والنهي عن المنكـــر، ينكـــرون على النـــاس ما ظهر من

المعاصي، وينسـون ما في بـواطن أنفسـهم من المنكـرات التي تأكل ما جمعوه من الحسنات.
وفرقة زهــدت في المــال، وقنعت من اللبــاس والطعــام بالدون، ومن المســاكن بالمسـاجد، وظنت أنها أدركت رتبة الزهـــاد، وهم مع ذلك راغبـــون في الرياسة والجـــاه، إما بالعلم، وإما بالوعظ أو بمجرد الزهد.
وهكذا في كل عمل للشيطان منه نصيب.
ومنهم فرقة غرهم الشـيطان، وجعل لهم زيًا وهيئة ومنطقًا وحركات ومراسم، واختار لهم أدعية باطلة، وحالات مشينة كالتمـاوت والسـماع والتنفس إلى غـير ذلك من الشـمائل والهيئات المشينة التي غرهم بها الشيطان.
وفرقة منهم ادعت علم المعرفة ومشاهدة الحق، ومجاوزة المقامـات والأحـوال، والملازمة في عين الشـهود والكشف والوجد، وغيرها من الطامات والهذيان والبهتـان، حـتى ظن بعضـــهم أن ما هم عليه من الباطل أعلى من علم الأولين والآخـرين، وينظر هـؤلاء إلى الفقهـاء والعلمـاء والمحـدثين والمفسـرين بعين الازدراء، فضـلاً عن العـوام، فكم يفـرح الشيطان بمثل هؤلاء؟.
وفرقة أخـرى وقعت في الإباحـة، وطـووا بسـاط الشـرع، ورفضوا الأحكام، وسووا بين الحلال والحرام.
فبعضـــهم يـــزعم أن الله مســـتغنٍ عن عمله فلِـــمَ يتعب نفسه؟.
وقال بعضهم: كلف العباد ما لا يطيقون من تطهير القلــوب من الشهوات وحب الدنيا وذلك محال.
فلله كم أضل الشـــيطان من البشر بمثل هـــذه الخـــواطر والأفكار؟.
الصنف الثالث: أرباب الأموال.
والمغترون منهم فرق:
ففرقة منهم يحرصـــون على بنـــاء المســـاجد والمـــدارس والقنــاطر، وما يظهر للنــاس، ويكتبــون أســماءهم عليهــا، ليتخلد ذكرهم ويـدعى لهم، ويظنـون أنهم يغفر لهم بـذلك، وهم مغـــرورون حيث بنوها من أمـــوال محرمـــة، فهم قد

تعرضـوا لسـخط الله في كسـبها، وتعرضـوا لسـخطه في إنفاقهـا، وكتابة الأسـماء تنـافي الإخلاص، والله لا يقبل من العمل إلا ما كـان خالصًـا صـوابًا، والله أعلم بما في صـدور العالمين.
وربما اكتسبت هذه الفرقة المال من الحلال، وأنفقت على المسـاجد، وهي أيضًـا مغـرورة إما بالريـاء، وحب الثنـاء، أو بالإسراف الذي زينه الشـيطان بزخرفة المسـاجد ونقشـها، والتي تشغل المصلين، وتخطف أبصارهم.
والمقصــود من الصــلاة الخشــوع، وحضــور القلب، وهــذه الزخرفة تشغلهم عن ذلك، وتحبط ثـواب أعمـالهم. ووبـال ذلك كله يرجع إليــه، وهو مع ذلك يغــتر بــه، ويــرى أنه من الخيرات.
وطائفــة أخـــرى من الأغنـــياء ينفقـــون الأمـــوال في الصــدقات على الفقـــراء والمســاكين، ويطلبــون بــذلك المحافل الجامعة، ويرون إخفاء الفقير لما يأخذ منهم جناية عليهم، وكفرانًا لإحسانهم إليه.
ويكرهـون التصـدق في السر طلبًا لمحمـدة النـاس، وعلو الجاه عندهم.
وفرقة أخرى من الأغنياء اشتغلوا بحفظ، الأموال وإمساكها بحكم البخــل، ثم هم يشــتغلون بالعبــادات البدنية الــتي لا يحتـاج فيها إلى النفقة كصـيام النهـار، وقيـام الليـل، وختم القرآن ونحو ذلك.
وهم مغـرورون بـذلك، لأن البخل المهلك قد اسـتولى على قلوبهم.
وفرقة أخـرى غلبهم البخـل، فلا تسـمح نفوسـهم إلا بـأداء الزكاة فقط، ثم إنهم يخرجـون من المـال الخـبيث الـرديء الــذي يرغبــون عنــه، ويطلبــون من الفقــراء من يخــدمهم، ويــــتردد في حاجـــاتهم، وكل ذلك من مفســـدات النيـــة، ومحبطات الأعمال.
وفرقة أخـرى من أربـاب الأمـوال والفقـراء وعـوام الخلق اغـتروا بحضـور مجـالس الـذكر، واعتقـدوا أن ذلك يغـنيهم ويكفيهم، واتخذوا ذلك عـادة، ويظنـون أن لهم على مجـرد

سماع الوعظ دون الاتعاظ أجرًا، وهم مغـرورون، لأن فضل مجـــالس الـــذكر لكونها مرغبة في الخـــير، فـــإن لم يهيج المجلس الرغبة في العمل فلا خير فيه.
فهـذه وسـائل الشـيطان ومداخله إلى القلب وهي كثـيرة، فليس في الإنسان صفة مذمومة إلا وهي سلاح للشـيطان، ومدخل من مداخله، ومطيَة من مطاياه.
وعلاجها على وجه العموم بثلاثة أمور:
الأول: اللجـوء إلى الله بالـدعاء وسـؤاله إبعـاد الشـيطان عنه.
قال الله تعـالى: (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّـيْطَانِ نَـزْغٌ فَاسْـتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (36)) [فصلت: 36].
الثـــاني: العناية في إزالة هـــذه الصـــفات المذمومة من القلـــوب، وقلعها منهـــا، فـــإن الشـــيطان مثل الكلب في التسـلط على الإنسـان، فـإذا كـان الإنسـان متصـفًا بهـذه الصـفات الذميمة من الغضب والحسد والحـرص ونحوهـا، كـان بمنزلة من يكـون بين يديه خـبز ولحم، فـإن الكلب لا محالة يتهور عليه ويتوثب، ويشق دفعه.
وإن لم يكن متصفًا بها لم يطمع فيه، لأنه لا داعي له هناك، ويكون دفعه أسهل ما يكون.
وتزال تلك الصفات بضدها.. فيزال الغضب بالرضا.. ويـزال الكـبر بالتواضـع.. ويـزال الطمع بـالورع.. ويـزال الحسد بمعرفة أن النعم فضل الله يؤتيه من يشاء.. وهو أعلم بمن يصلح لها.. ويزال البخل بالإنفاق.. وهكذا.
الثالث: ذكر الله تعالى والفكر، فكلما ألم بقلوبهم شيء من تلك الصفات المذمومة ذكروا الله وتفكروا في حقه، وفيما أمر به، وفيما نهى عنه، فعند ذلك تحصل لهم البصيرة كما قال سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (201)) [الأعراف: 201].
والغين على القلب ألطف شيء وأرقه.
وعَنِ الأَغَرِّ الْمُـزَنِىِّ - وَكَـانَتْ لَـهُ صُـحْبَةٌ - أَنَّ رَسُـولَ اللَّهِ - صـلى الله عليه وسـلم- قَـالَ « إِنَّهُ لَيُغَـانُ عَلَى قَلْبِى وَإِنِّى

لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِى الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ ». **أخرجه مسلم**[66]**.**
والران من أغلظ الحجب على القلب وأكثفها، فإذا كثرت الذنوب والمعاصي عند العبد، وتوالى الذنب بعد الذنب، أحاطت تلك الذنوب والمعاصي بالقلب وتغشته، فيموت القلب إذا غمرته تلك الأعمال الخبيثة.
وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِى قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ وَهُوَ الرَّانُ الَّذِى ذَكَرَ اللَّهُ (كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) ». **أخرجه الترمذي** [67]**.**
فالذنب بعد الذنب يغطي القلب حتى يصير كالران عليه كما قال سبحانه: (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14)) [المطففين: 14].
فالغين ألطف شيء وأرقه.. والران أن يسود القلب من الذنوب.. والطبع أن يطبع على القلب، وهو أشد من الران.. والأقفال أشد من الطبع.. وهي أن يقفل على القلب فلا يصل إليه شيء كما قال سبحانه: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24)) [محمد: 24].
وجميع أمراض القلوب إنما تنشأ من جانب النفس، ومن جانب الشيطان، ولكل منهما على القلب آثار وأضرار.. ولكل منهما علامات، ولكل منهما دواء.
ولا تزكو القلوب إلا بثلاثة أمور:
تزكية القلوب بالتوحيد والإيمان.. والتزكية بفعل الواجبات وترك المحرمات.. والتزكية بفعل النوافل المشروعة.
فإذا زكت القلوب ذكرت ربها في كل حين، وعبدته بكل جارحة، وأطاعته في كل أمر، وتخلقت بأحسن الأخلاق، مع الله بالإيمان وأحسن الأعمال، ومع الخلق بأحسن المعاملات والمعاشرات: (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى

---

[66](?) أخرجه مسلم برقم (2702).
[67](?)أخرجه الترمذي برقم (3334)، وقال حسن صحيح وهو كما قال .وأخرجه ابن ماجه برقم (4244)، صحيح سنن ابن ماجه رقم (3422).

إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (18)) [فاطر: 18].

====================

1- علاج مرض القلب من استيلاء النفس عليه

قــال الله تعــالى: (وَمَا أُبَــرِّئُ نَفْسِــي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53)) [يوسف: 53].

وقال الله تعالى: (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41)) [النازعات: 40، 41].

إن جميع أمراض القلوب إنما تنشأ من جانب النفس.

فــالمواد الفاســـدة كلها تنصب إليهـــا، ثم تنبعث منها إلى الأعضاء، وأول ما تنال القلب.

وقد اســتعاذ النــبي صــلى الله عليه وســلم من شــرها عمومًــا، ومن شر ما يتولد منها من الأعمــال، ومن شر ما يترتب على ذلك من المكاره والعقوبات.

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّــدِّيقَ رضى الله عنه قَــالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مُرْنِى بِكَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ. قَــالَ « قُــلِ اللَّهُمَّ فَــاطِرَ السَّــمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَــالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ رَبَّ كُــلِّ شَــىْءٍ وَمَلِيكَـهُ أَشْـهَدُ أَنْ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنْتَ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِــرْكِهِ ». قَــالَ « قُلْهَا إِذَا أَصْــبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَــيْتَ وَإِذَا أَخَــذْتَ مَضْــجَعَكَ ». **أخرجه البخاري في الأدب المفرد والترمذي** [(68)]**.**

والنفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الرب، فإنه لا يـــدخل عليه ســـبحانه ولا يوصل إليه إلا بعد إماتتها وزجرها ومخالفتها.

فإن الناس على قسمين:

قسم ظفـرت به نفسه فملكته وأهلكتـه، وصـار طوعًا لهـا، ينفذ أوامرها.

وقسم ظفــروا بنفوســهم فقهروهــا، فصــارت طوعًا لهم، منقادة لأوامرهم.

---

[68](?)أخرجه البخاري في الأدب المفرد برقم (1239)، وهذا لفظه، صحيح الأدب المفرد رقم (914). صحيح وأخرجه الترمذي برقم (3529)، صحيح سنن الترمذي رقم (2792).

فالنفس تدعو إلى الطغيـان، وإيثـار الحيـاة الـدنيا.. والـرب يـدعو عبـده إلى طاعته وخوفـه، ونهي النفس عن الهـوى، والقلب بين الداعيين.
يميل إلى هذا الداعي مـرة.. وإلى هـذا مـرة.. وهـذا موضع المحنة والابتلاء.
والنفس واحــدة باعتبــار ذاتهــا، وثلاث باعتبــار صفاتها:
نفس مطمئنة.. ونفس لوامة.. ونفس أمارة بالسوء.
فالنفس إذا سكنت إلى الله واطمأنت بذكره، وأنابت إليــه، واشتاقت إليـه، وأنست بقربـه، فهي المطمئنـة، وهي الـتي يقــــال لها عند المــــوت: (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَـادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي (30)) [الفجر: 27-30].
وحقيقة الطمأنينة: السكون والاستقرار، فهي الـتي قد سكنت إلى ربها وطاعته وأمره وذكره، ولم تسكن إلى أحدٍ سواه.
فقد اطمـأنت إلى محبته وعبوديته وذكـره.. واطمـأنت إلى أمره ونهيه وخبره.. واطمأنت إلى لقائه ووعده.. واطمأنت إلى قضـــائه وقـــدره.. واطمـــأنت إلى كفايته وحســـبه.. واطمــأنت إلى التصــديق بحقــائق أســماء الله وصــفاته.. واطمـأنت بـأن الله وحـده ربها وإلهها ومعبودها ومليكهـا.. ومالك أمرها كلـه.. وأن مرجعها إليـه.. وأنه لا غـنى لها عنه طرفة عين.. واطمــأنت إلى الرضى بالله ربًــا.. وبالإســلام دينًا.. وبمحمد رسولاً.
والنفس الأمـارة بالسـوء هي الـتي بضد ذلك تـأمر صـاحبها بالســوء.. وبما تهــواه من شــهوات الغي والباطــل.. فهي مــأوى كل ســوء.. وإن أطاعها العبد قادته إلى كل قــبيح.. وساقته إلى كل مكروه.. وهي التي ذكرها الله بقولـه: (وَمَا أُبَـرِّئُ نَفْسِـي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّـوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53)) [يوسف: 53].
وعــــادة النفس ودأبها الأمر بالســـوء إلا إذا رحمها اللـــه، وجعلها زاكية تأمر صـاحبها بـالخير، فـذلك من رحمة الله لا

منهـا، فإنها بـذاتها أمـارة بالسـوء، لأنها في الأصل خلقت جاهلة ظالمة إلا من رحمه الله، والعدل والعلم طارئ عليها بإلهام ربها وفاطرها لها ذلك.
فإذا الله لم يلهمها رشـدها، بقيت على ظلمها وجهلهـا، فلم تكن أمارة إلا بموجب الجهل والظلم.
فلولا فضل الله ورحمته على المؤمنين ما زكت منهم نفس واحدة كما قال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (21)) [النور: 21].
وسبب الظلم إما جهل.. وإما حاجة.
والنفس في الأصل جاهلة، والحاجة لازمة لها، فلـذلك كـان أمرها بالسوء لازمًا لها إن لم تدركها رحمة الله وفضله.
فــإذا أراد الله بها خــيرًا جعل فيها ما تزكو به من الإيمــان والأعمال الصالحة.
وإن لم يرد بها ذلك تركها على حالها الـتي خلقت عليها من الجهل والظلم.
أما النفس اللوامة فهي اللؤم كما أخبر الله عنها بقوله: (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2)) [القيامة: 1، 2].
فكل نفس تلوم نفسها يوم القيامة:
تلــوم المحسن نفسه أن لا يكــون ازداد إحســانًا.. وتلــوم المسيء نفسه أن لا يكون رجع عن إساءته.
والمؤمن ما تراه إلا يلوم نفسه على كل حالاته:
يلومها على كل ما يفعـــل، ويلومها على تـــرك ما أمر الله بـــه.. ويلومها على تـــأخيره ونقصه إن فعلـــه، ويلومها على فعل ما نهى الله عنه وعلى كثرته وإعلانه.
والنفس قد تكون تارة لوامة.. وتارة أمارة بالسـوء.. وتـارة مطمئنة، بل في اليـوم الواحـد، والسـاعة الواحـدة، يحصل منها هذا وهذا، والحكم للغالب عليها من أحوالها.
فكونها مطمئنة وصف مــدح لهــا.. وكونها أمــارة بالســوء

وصف ذم لهـــا، وكونها لوامة ينقسم إلى المـــدح والـــذم بحسب ما تلوم عليه من ترك واجب، أو فعل محرم.

ومــرض القلب باســتيلاء النفس الأمــارة عليه له علاجان هما:

محاسبة النفس.. ومخالفة النفس.

وهلاك القلب من إهمــال محاســبتها، ومن موافقتها واتبــاع هواها.

والنفس مع صــاحبها كالشــريك في المــال بينهما شــروط وعهود، فكذلك النفس حـتى تزكو لا بـدَّ أن يتفق معها على شروط.

يشارطها أولاً على حفظ الجوارح السـبعة الـتي حفظها هو رأس المــال، والــربح بعد ذلك وهي: العين، والأذن، والفم، واللسان، والفرج، واليد، والرجل.

وهذه هي مراكب العطب والنجــاة، فمنها عطب من عطب بإهمالها وعدم حفظها، ونجا من نجا بحفظها ومراعاتها.

فحفظها أساس كل خير، وإهمالها أساس كل شر.

قال تعالى :(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّـوا مِنْ أَبْصَـارِهِمْ وَيَحْفَظُـوا فُـرُوجَهُمْ ذَلِـكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِـيرٌ بِمَا يَصْـنَعُونَ (30)) [النور: 30].

وقال الله تعالى: (وَقُـلْ لِلْمُؤْمِنَـاتِ يَغْضُضْـنَ مِنْ أَبْصَـارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُـــرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْـــدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَـــرَ مِنْهَا وَلْيَضْـــرِبْنَ بِخُمُـــرِهِنَّ عَلَى جُيُـــوبِهِنَّ وَلَا يُبْـــدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُـــولَتِهِنَّ أَوْ آَبَـــائِهِنَّ أَوْ آَبَـــاءِ بُعُـــولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَـــائِهِنَّ أَوْ أَبْنَـــاءِ بُعُـــولَتِهِنَّ أَوْ إِخْـــوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْـــوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَـــوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَـــائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـــانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْـــرِ أُولِي الْإِرْبَـــةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُـــوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31)) [النور: 30].

وقال الله تعالى: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36)) [الإسراء: 36].

وقال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَـــوْلًا

سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71)) [الأحزاب: 70].

فإذا شارط العبد نفسه على حفظ هذه الجوارح انتقل منها إلى مطالعتها ومراقبتها، فلا يهملها لئلا ترتع في الخيانة، ومتى أحس بالنقصان بادر إلى محاسبتها وتذكيرها بما شارطها عليه.

فإن أحس بالخسران استدرك منها ما يستدركه الشريك من شريكه، من الرجوع عليه بما مضى، والقيام بالحفظ والمراقبة في المستقبل، ولا مطمع له في فسخ عقد الشركة مع هذا الخائن والاستبدال بغيره فإنه لا بدَّ له منه.

فليجتهد في مراقبته ومحاسبته، وليحذر من إهماله، ويعينه على هذه المراقبة والمحاسبة، معرفته أنه كلما اجتهد فيها اليوم استراح منها غدًا، إذا صار الحساب إلى غيره يوم القيامة.

ويعينه كذلك معرفته أن ربح هذه التجارة سكنى الفردوس، والنظر إلى وجه الرب سبحانه، والفوز برضوانه.

وخسارتها دخول النار والحجاب عن الرب تعالى، والتعرض لسخطه.

فإذا تيقن هذا هان عليه الحساب اليوم وغدًا: (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (30)) [آل عمران: 30].

ومحاسبة النفس لها مرحلتان:

الأولى: محاسبتها قبل العمل.

فإذا تحركت النفس لعمل من الأعمال، وهم به العبد، فلينظر هل ذلك العمل مقدور له أم غير مقدور له؟.

فإن لم يكن مقدورًا لم يقدم عليه، وإن كان مقدورًا له، نظر هل فعله خير له من تركه؟.. أو تركه خير له من فعله؟.

فإن كان الثاني تركه، وإن كان الأول وقف ونظر هل الباعث عليه إرادة وجه الله وثوابه، أو إرادة الجاه والثناء

والمال من المخلوق؟.
فإن كان الثاني لم يقدم عليه، وإن أفضى به إلى مطلوبــه، لئلا تعتــاد النفس الشــرك، ويخف عليها العمل لغــير اللــه، فبقدر ما يخف عليها ذلك، يثقل عليها العمل لله تعالى.
وإن كان الأول وقف ونظر هل هو معـان عليـه، وله أعـوان يســاعدونه وينصــرونه، إذا كــان العمل محتاجًا إلى ذلك أم لا؟.
فإن لم يكن له أعوان أمسك عنه كما أمسك النـبي صـلى الله عليه وســلم عن الجهـاد، بمكة حـتى صـار له شـوكة وأنصار في المدينة.
وإن وجد نفسه معانًا فليقدم عليه فإنه منصور.
ولا يفـوت النجـاح والفـوز والفلاح إلا من فـوت خصـلة من هذه الخصال.
الثانية: محاسبة النفس بعد العمل.
وتكــون بمحاســبتها على طاعة قصــرت فيها في حق الله تعالى.
وحق الله في الطاعة ستة أمور وهي:
الإخلاص في العمل.. والنصيحة فيه للـه.. ومتابعة الرسـول فيه.. وشهود مشـهد الإحسـان فيـه.. وشـهود منة الله عليه فيه.. وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله.
ويحاسبها كذلك على كل عمل كان تركه خيرًا له من فعله، وعلى كل أمر مبــاح أو معتــاد لم فعلــه؟، وهل أراد به الله والدار الآخرة؟، أو أراد به الدنيا وعاجلها؟.
وصـــــلاح القلب بمحاســــبة النفس، وفســــاده بإهمالها والاسترسال معها.
وجمــاع ذلك أن يحاسب نفسه أولاً على الفــرائض، فــإن تذكر فيها نقصًـا تداركه إما بقضـاء أو إصـلاح أو الإكثـار من النوافل.
ثم يحاسبها على المناهي، فإن عرف أنه ارتكب منها شـيئًا، تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية.
ثم يحاسب نفسه كذلك على الغفلة، فإن كان قد غفل عما خلق له، تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى.

ثم يحاسبها علي ما تكلم به لسانه، أو مشت إليه رجلاه، أو بطشت يــداه، أو ســمعته أذنــاه، مــاذا أردت بهــذا؟.. ولم فعلته؟.. وعلى أي وجه فعلته؟.
فكل عبد سيسأل عن الإخلاص والمتابعة في كل عمل:
(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110)) [الكهف: 110].
وإذا كان العبد مسؤولاً ومحاسبًا على كل شيء، فهو حقيق أن يحاسب نفسه قبل أن ينــاقش الحســاب: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَــدٍ وَاتَّقُــوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18)) [الحشر: 18].
وأنفع ما للقلب النظر في حق الله على العبــد، فــإن ذلك يورثه مقت نفســـه، والازدراء عليهـــا، ويخلصه من العجب ورؤية العمل، ويفتح له باب الذل والخضـوع والانكسـار بين يـدي اللـه، واليـأس من نفسـه، وأن النجـاة لا تحصل له إلا بعفو الله ومغفرته ورحمته.
فـإن من حقه سـبحانه أن يطـاع فلا يُعصـى، وأن يُـذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر، وأن يعبد وحده دون سواه.
فمن نظر في هـذا الحق الـذي لربه عليـه، علم علم اليقين أنه غــير مــؤدٍ له كما ينبغي، وأنه لا يســعه إلا طلب العفو والمغفرة، وأنه إن أحيل على عمله هلك.
فهذا محل نظر أهل المعرفة بالله تعالى وبنفوسـهم، وهـذا الــذي أيأســهم من أنفســهم، وعلق رجــاءهم كله بعفو الله ورحمته.
قـال الله تعـالى: (قَـالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَـافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُـوا عَلَيْهِمُ الْبَـابَ فَـإِذَا دَخَلْتُمُـوهُ فَـإِنَّكُمْ غَـالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (23)) [المائدة: 23].
و عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قَــالَ « سَدِّدُوا وَقَارِبُوا ، وَاعْلَمُوا أَنْ لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ ، وَأَنَّ أَحَبَّ الأَعْمَـــالِ أَدْوَمُهَا إِلَى اللَّهِ ، وَإِنْ قَـــلَّ » **متفق**

عليه[69]**.**
وإذا تأمل العبد حال أكثر الناس وجدهم بضد ذلك، ينظرون في حقهم على الله، ولا ينظـرون في حق الله عليهم، ومن هنا انقطعوا عن الله، وحجبت قلوبهم عن معرفته ومحبتـه، والشوق إلى لقائه، والتلذذ بذكره، والابتهاج بطاعتـه، وهـذا غاية جهل الإنسان بنفسه وربه.
فمحاسـبة النفس تكـون بنظر العبد في حق الله عليه أولاً، ثم نظـره هل قـام به كما ينبغي لجلال الله ثانيًـا، ثم نظـره هل أداه في وقته ثالثًا ثم نظـره في تقصـيره عن شـكر ما أنعم الله به عليه رابعاً.
وأفضل الفكر الفكر في ذلك.. فإنه يسير بالقلب إلى الله.. ويطرحه بين يديه ذليلاً خاضعًا.. منكسرًا كسرًا فيه جـبره.. ومفتقرًا فقرًا فيه غناه.. وذليلاً ذلاً فيه عزه.
ومعرفة العبد بحق الله عليه يجعله لا يـــدلي بعمل أصـــلاً كائنًا ما كــان، ومن أدلى بعمله لم يصــعد إلى الله تعــالى، والله غـــني عن كل ما ســـواه: (وَمَنْ جَاهَـــدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِـــدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (6)) [العنكبوت: 6].
« اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى ظُلْمًا كَثِيرًا وَلاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ ، فَـــاغْفِرْ لِى مَغْفِـــرَةً مِنْ عِنْـــدِكَ ، وَارْحَمْنِى إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » **. متفق عليه**[70]**.**

========================

2- علاج مرض القلب من وسوسة الشيطان

قال الله تعالى: (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (36)) [فصلت: 36].
وقال الله تعالى: (وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (97) وَأَعُوذُ بِـكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُـرُونِ (98)) [المؤمنـون: 97، 98].
الشيطان عدو لجميع بني آدم، ولذلك جاء ذكره في الكتاب

[69](?) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (6464)، ومسلم برقم (2818) واللفظ له.
[70](?) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (834)، ومسلم برقم (2705)، واللفظ له،.

والسنة أكثر من ذكر النفس، وحذر الله عباده منه أكثر من تحــذيره من النفس، وذلك لعظيم خطــره، وكــثرة حيلــه، وشدة عداوته وكثرة جنوده.
وشر النفس وفســادها ينشأ من وسوســته، فهي مركبــه، وموضع شره، ومحل طاعته، ولذلك فهو ملازم لها، ويجري في ابن آدم مجرى الدم.
وقد أمرنا الله عزَّ وجلَّ بالاستعاذة منه عند قـراءة القـرآن وغيرها، لشـدة الحاجة إلى التعـوذ منـه، ولم يـأمر سـبحانه بالاستعاذة من النفس في موضع واحد.
وإنما جاءت الاستعاذة من شر النفس، وشر الشيطان فعَنْ أَبِى رَاشِــدٍ الْحُبْــرَانِىِّ قَــالَ أَتَيْتُ عَبْــدَ اللَّهِ بْنَ عَمْــرِو بْنِ الْعَاصِى فَقُلْتُ لَهُ حَدِّثْنَا مِمَّا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صــلى الله عليه وسلم-.فَأَلْقَى إِلَىَّ صَحِيفَةً فَقَـالَ هَـذَا مَا كَتَبَ لِى رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ فَنَظَـرْتُ فِيهَا فَـإِذَا فِيهَا إِنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّـدِّيقَ رضى الله عنه قَـالَ يَا رَسُـولَ اللَّهِ عَلِّمْنِي مَا أَقُولُ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ. فَقَالَ « يَا أَبَا بَكْرٍ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ رَبَّ كُلِّ شَىْءٍ وَمَلِيكَهُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَـرِّ نَفْسِـى وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشَرَكِهِ وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِـى سُـوءًا أَوْ أَجُــرَّهُ إِلَى مُسْــلِمٍ ». **أخرجه البخــاري في الأدب المفرد والترمذي** [71]**.**
فالشر كله إما أن يصــــدر من النفس.. أو يصــــدر من الشيطان.
وغايتــه: إما أن تعـود على العامــل، أو على أخيه المســلم، فتضمن الحديث الاستعاذة من الشر وأسبابه وغايته، وبيـان مصدري الشر، وغايتيه التي يصل إليهما.
وأمر الله عــزَّ وجــلَّ بالاســتعاذة من الشــيطان عند قــراءة القرآن كما قال سبحانه: (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُـرْآَنَ فَاسْـتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ

[71](?)أخرجه البخاري في الأدب المفرد برقم (1239)، وهذا لفظه، صحيح الأدب المفرد رقم (914). وأخرجه الترمذي برقم (3529)، صحيح سنن الترمذي رقم (2789). صحيح

آَمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99)) [النحل: 98، 99].
فالقرآن شـفاء لما في الصـدور، يـذهب ما يلقيه الشـيطان فيها من الوساوس والشـهوات، والإرادات الفاسـدة، فـأمر الله العبد أن يطرد مادة الداء، ويخلي منه القلب.
والقرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب، وكلما أحس الشــيطان بنبــات الخــير في القلب ســعى في إفســاده وإحراقه، فـأمر أن يسـتعيذ بالله عـزَّ وجـلَّ منـه، لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن من المنافع.
والملائكة تــدنو من قــارئ القــرآن، وتســتمع لقراءتــه، والشيطان ضد الملك وعـدوه، فـأمر القـارئ أن يطلب من الله تعالى مباعدته عنه، حتى يحضره خاص ملائكته.
وكـذلك الشـيطان يجلب على القـارئ بخيله ورجلـه، حـتى يشغله عن الانتفاع بـالقرآن، ويحـول بينه وبينـه، فـأمر عند الشروع في القراءة أن يستعيذ بالله منه.
وكـذلك الشـيطان يلقي في قـراءة القـارئ، ويلبس عليـه، ولهــذا يغلط القــارئ تــارة، ويخلط عليه تــارة، فــأمر الله سبحانه بالاستعاذة منه عند قراءة القرآن.
والله عزَّ وجلَّ لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً، لكن قد تصــدر من المؤمــنين من المعاصي والمخالفــات الــتي تضـاد الإيمـان، ما يصـير به للكـافرين عليهم سـبيل بحسب تلك المخالفة، فهم الذين تسـببوا إلى جعل السـبيل عليهم، كما تسببوا إليه يوم أُحُد بمعصية الرسول ومخالفته.
فالأصل نصر الله لمن أطاعه، وخذلان من عصاه: (الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (141)) [النساء: 141].
وقــال الله ســبحانه: (إِنْ يَنْصُــرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَــالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (160)) [آل عمران: 160].
والله سبحانه لم يجعل للشيطان على العبد سلطانًا، حتى

جعل له العبد سبيلاً إليه بطاعته والشرك به، فجعل الله حينئذ للشيطان على الإنسان تسلطًا وقهرًا بالإغواء والإضلال، بحيث يؤزهم إلى الكفر والشرك والمعاصي، ويزعجهم إليها، ولا يدعهم يتركونها كما قال سبحانه: (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (83)) [مريم: 83].

فالتوحيد والإيمان، والإخلاص والتوكل على الله يمنع سلطانه كما قال الله سبحانه: (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99)) [النحل: 99].

والشــرك وفروعه من المعاصي والمنكــرات والفــواحش يــوجب ســلطانه على البشر الــذين تولــوه، ودخلــوا في طاعته، وانضموا لحزبه.

فهؤلاء الذين جعلـوا للشـيطان ولاية على أنفسـهم، فـأزهم إلى المعاصي أزًا، وقادهم إلى النـار من حيث لا يشـعرون: (إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْـرِكُونَ (100)) [النحل: 100].

وقد اســتولى الشــيطان على كثــير من قلــوب البشر وأبــدانهم، أمــرهم بــالكفر فكفــروا، وزين لهم المعاصي فعصوا: (وَلَقَـدْ صَـدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَـاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (20)) [سبأ: 20].

وجميع ذلك بقضـاء من أزمة الأمـور بيـده، فمن وجد خـيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفســه، والله حكيم عليم.

والشيطان دأبه وديدنه الوسوسة، فإذا ذكر العبد ربه هـرب الشـيطان وخنس واختفى، فـإن ذكر الله هو مقمعته الـتي يقمع بها كما يقمع المفسد والشـرير بالمقـامع الـتي تروعه من سياط وحديد وعصي ونحوها.

فــذكر الله عــزَّ وجــلَّ يقمع الشــيطان ويؤلمه ويؤذيــه، كالمقامع التي تؤذي من يُضرب بها من البشر.

ولهذا يكون شيطان المؤمن هزيلاً ضئيلاً مضنى، مما يعذبه المؤمن ويقمعه به من ذكر الله وطاعته.

فكلما اعترضه صب عليه سياط الذكر والتوجه والاســتغفار

والطاعة، فشيطانه معه في عذاب شديد.
أما شيطان الكـافر فهو معه في راحة ودعـة، ولهـذا يكـون قويًا عاتيًا شــديدًا، لأنه مطــاع فيما يــأمر به من المعاصي والمنكـرات، فمن لم يعـذب شـيطانه بـذكر الله في الـدنيا وتوحيـده واسـتغفاره وطاعتـه، عذبه شـيطانه في الآخـرة بعذاب النار.
فلا بــدَّ لكل أحد أن يعـذب شــيطانه.. أو يعذبه شــيطانه.. وأنت أحدهما ولا بد.
والشر نوعان:
شر من داخل النفس.. وشر من خارج النفس.
وسورة الفلق تضمنت الاسـتعاذة من الشر الخـارجي، وهو ظلم الغير له، كما قال سبحانه: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَـقِ (1) مِنْ شَـرِّ مَا خَلَـقَ (2) وَمِنْ شَـرِّ غَاسِـقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَــدَ (5)) [الفلق: 1-5].
والشر الخـارجي الـذي أمر العبد أن يسـتعيذ بالله منه أربعة أقسام:
الأول: الاستعاذة من كل شر في أي مخلوق قـام به الشر من إنســان أو غــيره من جن أو حيــوان أو هامة أو دابة أو ريحًا أو صاعقة أو غيرها.
الثاني: شر الغاسق إذا وقب، وهو الليل إذا أظلم، والقمر علامته، وهو محل سـلطان الأرواح الشـريرة الخبيثـة، وفيه تتســلط شــياطين الإنس والجن ما لا تتســلط في النهــار، والفلق هو الصبح الذي يطرد الظلام.
الثـالث: شر النفاثـات في العقـد، وهي الأرواح الشـريرة، والأنفس الخبيثـة، فـإذا تكيفت نفسه بـالخبث والشر الـذي يريده بالمسحور، ويستعين عليه بالأرواح الخبيثــة، نفث في تلك العقد فيقع السحر.
الرابع: شر الحاسد إذا حسد من الإنس والجن، وكل عنده حســد، ولكن المـؤمن يدفعـه، والحاسد عـدو النعم يتمـنى زوالها.
فسورة الفلق تضمنت الاستعاذة من هذه الشرور الخارجية

الأربعة، ويسمى ذلك كله شر المصائب.
أما سورة الناس فقد تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو ظلم العبد لنفسه، وهو شر من داخل الإنسان، ويسمى شر المعائب التي أصلها الوسوسة كما قال الله سبحانه: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6)) [الناس: 1-6].
والشر كله يرجع إلى العيوب والمصائب، ولا ثالث لهما.
فالأول: وهو شر المصائب، لا يدخل تحت التكليف، لأنه ليس من كسب الإنسان.
والثاني وهو شر المعائب، يدخل تحت التكليف، ويطلب من العبد الكف عنه، وهو منشأ العقوبات في الدنيا والآخرة.
والله عزَّ وجلَّ سميع لاستعاذة عبده، عليم بما يستعيذ منه، مرة يقرن السمع بالعلم، ومرة يقرنه بالبصر، لاقتضاء حال المستعيذ ذلك.
فالاستعاذة من الشيطان الذي نعلم وجوده ولا نراه جاءت بلفظ السميع العليم كما قال سبحانه: (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (199) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (200)) [الأعراف: 200].
والاستعاذة من شر الإنس الذين يرون بالأبصار جاء بلفظ السميع البصير كما قال سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (56)) [غافر: 56].
وذلك لينبسط المستعيذ، وليعلم أن الله سميع لاستعاذته، مجيب له، عليم بكيد عدوه، يراه ويبصره، فيقبل الداعي على الدعاء.
وقد اشتملت الإضافات الثلاث في قوله سبحانه: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3)) على جميع قواعد الإيمان، وتضمنت معاني أسماء الله الحسنى.

فالإضافة الأولى: (بِرَبِّ النَّاسِ)إضافة الربوبية المتضمنة لخلق العباد وتدبيرهم، وتربيتهم وإصلاحهم، وجلب ما ينفعهم، ودفع ما يضرهم، وحفظهم مما يفسدهم.
والإضافة الثانية: (مَلِكِ النَّاسِ) إضافة الملك، فهو الملك المتصرف فيهم، وهم عبيده ومماليكه، وهو المدبر لهم كما يشاء، النافذ القدرة فيهم، الذي له السلطان التام عليهم، فهو ملكهم الحق الذي إليه مفزعهم عند الشدائد والنوائب، فليس لهم ملك غيره يلجؤون إليه إذا دهمهم العدو، ويستنصرونه إذا نزل العدو بساحتهم، فهو الملك الآمر الناهي، العزيز الجبار، الحكم العدل، القوي العظيم، الذي له كل شيء، وبيده كل شيء.
والإضافة الثالثة: (إِلَهِ النَّاسِ) إضافة الإلهية إليهم، فهو إلههم الحق، ومعبودهم الذي لا إله لهم سواه، ولا معبود لهم غيره، فكما أنه وحده ربهم وملكهم، لم يشركه في ربوبيته ولا في ملكه أحد، فكذلك هو وحده إلههم ومعبودهم، فلا يحل لهم أن يجعلوا معه شريكًا في إلهيته.
وقــدم ســبحانه الربوبية لعمومها وشــمولها لكل مربــوب.. وأخر الألوهية لخصوصها، لأنه سبحانه إله من عبده ووحده، وإن كان في الحقيقة لا إله سواه.
ووسط الملك، لأن الملك هو المتصــرف بقوله وأمــره، فهو المطاع إذا أمــر، فملكه ســبحانه من كمــال ربوبيتــه، وكونه إلههم الحق من كمال ملكه.
والمســتعيذ: هو كل مكلف ســواء كــان نبيًا أو ملكًــا، أو إنسيًا أو جنيًا، لأن كل عبد وكل مخلوق محتاج، والمحتــاج لا ملجأ له إلا الله الذي خلقه، فلا ملجأ منه إلا إليه سبحانه.
والمستعاذ به: هو الله عزَّ وجلَّ، فــإن المســتعاذ به لا بــدَّ أن يكون قــادرًا مطلقًا على الإجــارة والتعويــذ، عالمًا بجميع أحوال المستعيذ، وذلك لا يعلمه إلا الله، فكل استعاذة بغير الله شرك وخيبة.
أما المســتعاذ منه فكثــير كما ورد في القــرآن والســنة من الاستعاذة من الشيطان، وشر ما خلق الله، وشر الغاســق، وشر النفاثات، وشر الحاسد إذا احسد، والجهالة، والســؤال

عما لا يليق.
وفي السنة الاستعاذة بالله من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء.
والاستعاذة من الهم والحزن، والعجز والكسل، وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال، ومن عذاب جهنم، ومن البرص والجنون والجوع ونحو ذلك.
ولما كان شر الشيطان جنيًا أو إنسيًا أكبر الأمور المانعة من قراءة القرآن والدعوة إليه، اختص بالذكر بالاستعاذة منه عند قراءة القرآن.
ومخلوقات الله تنقسم إلى ثلاثة أقسام:
الأول: شر محض كالنار وإبليس باعتبار ذاتهما، أما باعتبار الحكمة التي خلقهم الله من أجلها فهي خير، وفيها من المنافع ما لا يحصيه إلا الله.
الثاني: خير محض كالجنة والرسل والملائكة.
الثالث: ما فيه خير وشر، ونفع وضر، كعامة المخلوقات.
والاستعاذة إنما تكون من شر ما فيه شر فعَنِ الْحَارِثِ بْنِ يَعْقُوبَ أَنَّ يَعْقُوبَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ حَدَّثَهُ أَنَّهُ سَمِعَ بُسْرَ بْنَ سَعِيدٍ يَقُولُ سَمِعْتُ سَعْدَ بْنَ أَبِى وَقَّاصٍ يَقُولُ سَمِعْتُ خَوْلَةَ بِنْتَ حَكِيمٍ السُّلَمِيَّةَ تَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ « مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً ثُمَّ قَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ. لَمْ يَضُرُّهُ شَىْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ ». **أخرجه مسلم[72].**
والذي يوسوس في صدور الناس نوعان:
إنس.. وجن.
كما قال سبحانه: (الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6)) [الناس: 5، 6].
فالجني يوسوس في صدور الإنس، والإنسي أيضًا يوسوس للإنسي، والوسوسة الإلقاء الخفي في القلب، وهذا مشترك بين الإنس والجن، وإن كان الإنسي يلقى بواسطة الأذن، والجني لا يحتاج لذلك، لأنه يدخل في ابن آدم، ويجري منه مجرى الدم.

[72](?) أخرجه مسلم برقم (2708).

ونظـير اشـتراكهما في هـذه الوسوسـة، اشـتراكهما في الوحي الشيطاني كما قال سبحانه: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَـدُوًّا شَـيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُـوحِي بَعْضُـهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُـرُورًا وَلَـوْ شَـاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُـوهُ فَـذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (112)) [الأنعام: 112].

فالشـيطان يـوحي إلى الإنسي باطلـه، ويوحيه الإنسي إلى إنسي مثله.

فشياطين الإنس والجن يشـتركون في الـوحي الشـيطاني، ويشتركون في الوسوسة.

نسأل الله السلامة من شر هؤلاء.. وشر هـؤلاء: (وَقُـلْ رَبِّ أَعُوذُ بِـكَ مِنْ هَمَـزَاتِ الشَّـيَاطِينِ (97) وَأَعُـوذُ بِـكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (98)) [المؤمنون: 97، 98].

« اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَعَلَيْـكَ تَـوَكَّلْتُ وَإِلَيْـكَ أَنَبْتُ وَبِـكَ خَاصَـمْتُ اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُـوذُ بِعِزَّتِـكَ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِى أَنْتَ الْحَىُّ الَّذِى لاَ يَمُوتُ وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُـونَ ». **متفق عليه**[73].

=========================

[73](?) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (7383)، ومسلم برقم (2717)، واللفظ له.

3- شفاء القلوب والأبدان

قـال الله تعـالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَـدْ جَـاءَتْكُمْ مَوْعِظَـةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِـفَاءٌ لِمَا فِي الصُّـدُورِ وَهُـدًى وَرَحْمَـةٌ لِلْمُـؤْمِنِينَ (57)) [يونس: 57].

وقال الله تعالى: (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآَنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82)) [الإسراء: 82].

القـرآن كتـاب الله عـزَّ وجـلَّ، شـفاء لما في الصـدور من أمـراض الشـهوات الصـادة عن الانقيـاد للشـرع، وأمـراض الشبهات القادحة في العلم اليقيني.

وإذا شفي العبد من أمراض الشهوات، وأمراض الشـبهات، زال سـقمه، فقـدم مـراد الله على مـراد النفس، وصـار ما يرضي الله أحب إلى العبد من شهوة نفسـه، ووصل القلب إلى أعلى درجات اليقين.

وإذا صح القلب من مرضــه، ورفل بــأثواب العافيــة، تبعته الجوارح كلها، فإنها تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده.

فعَنْ عَامِرٍ قَـالَ سَـمِعْتُ النُّعْمَـانَ بْنَ بَشِـيرٍ يَقُـولُ سَـمِعْتُ رَسُـولَ اللَّهِ - صـلى الله عليه وسـلم - يَقُـولُ « الْحَلاَلُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهَا كَثِـيرٌ مِنَ النَّاسِ ، فَمَنِ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَـعَ فِى الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى ، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَـهُ . أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى ، أَلاَ إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِى أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ ، أَلاَ وَإِنَّ فِى الْجَسَدِ مُضْـغَةً إِذَا صَـلَحَتْ صَـلَحَ الْجَسَـدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَـدَ الْجَسَـدُ كُلُّهُ . أَلاَ وَهِىَ الْقَلْبُ » . **متفق عليه**[74].

ويحصل للمؤمنين بالقرآن كل هدى.. وكل رحمة.

فالهدى: هو العلم بالحق والعمل به.

والرحمـة: هي ما يحصل من الخـير والإحسـان، والثـواب العاجل والآجل لمن اهتدى به.

وإذا حصل الهــدى للعبــد، وحلت الرحمة الناشــئة عنــه،

---

[74](?) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (52)، ومسلم برقم (1599).

حصلت السعادة والفلاح، والربح والنجاح، والفرح والسرور.
ولذلك أمر الله عزَّ وجلَّ بالفرح بذلك فقال: (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (58)) [يونس: 58].
فـالقرآن مشـتمل على الشـفاء والرحمـة، وليس ذلك لكل أحـــد، وإنما ذلك للمؤمـــنين بـــه، المصـــدقين بآياتـــه، وأما الظالمون بعدم التصديق به، أو عدم العمل به، فلا يزيـدهم إلا خسارًا، إذ به تقوم عليهم الحجة.
والشـفاء الـذي تضـمنه القـرآن، عـام لشـفاء القلـوب من الشبه والجهالات، والانحرافات والآراء الفاسدة ونحوها.
فهو مشتمل على العلم اليقيـني الـذي تـزول به كل شـبهة وجهالة.
ومشـتمل على الوعظ والتـذكير الـذي تـزول به كل شـهوة تخالف أمر الله، ومشتمل على شفاء الأبـدان من أسـقامها وآلامها.
فالقرآن شفاء للأسقام القلبية، والأسقام البدنية، لأنه يحث على الإيمـــان والتوبة من الـــذنوب، ويزجر عن مســـاوئ الأخلاق، وأقبح الأعمـال، ويـأمر بالعـدل وعـدم الإسـراف، واجتناب الخبائث والمضرات.
وأهل الهدى والإيمان لهم شرح الصدر واتساعه وانفساحه، وأهل الضلال لهم ضيق الصـدر والحـرج كما قـال سـبحانه: (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُـرِدْ أَنْ يُضِـلَّهُ يَجْعَـلْ صَـدْرَهُ ضَـيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّـعَّدُ فِي السَّـمَاءِ كَـذَلِكَ يَجْعَـلُ اللَّهُ الـرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُـونَ (125)) [الأنعام: 125].
فقلب الكـــافر لا يصل إليه شـــيء من الخـــير، فيجعل الله صدره ضيقًا حرجًا، إذ سمع ذكر الله اشـمأز قلبـه، وإذا ذكر شيء من عبادة الأصنام واللهو ارتـاح إلى ذلـك: (وَإِذَا ذُكِـرَ اللَّهُ وَحْـدَهُ اشْـمَأَزَّتْ قُلُـوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُـونَ بِـالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِـهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِـرُونَ (45)) [الزمـر: 45].
ولما كان القلب محلاً للإيمان والتوحيـد، والعلم والمعرفـة،

والمحبة والسكينة، والصدق والإخلاص ونحوها، وكانت هـذه الأشياء إنما تدخل في القلب إذا اتسع لها.
فإذا أراد الله هداية عبد، وسع صدره وشرحه، فـدخلت فيه وسكنته.
وإذا أراد ضلاله، ضيق صدره وأحرجه، فلم يجد محلاً يدخل فيه، فيعدل عنه إلى غيره ولا يساكنه.
وكل شـيء فـارغ إذا دخل فيه الشـيء ضـاق بـه، وكلما أفرغت فيه زيادة ضاق إلا القلب اللين السليم، فكلما أفرغ فيه الإيمان والعلم، اتسع وانفسح وانشرح، وهـذا من آيـات قدرة الرب عزَّ وجلَّ.
وشرح الصدر من أعظم أسباب الهدى، وضـيق الصـدر من أعظم أسباب الضلال، وشـرح الصـدر للإيمـان والهـدى من أجلّ النعم، كما أن ضيق الصدر من أعظم النقم.
وكلما دخل نـور العلم والإيمـان والهـدى في القلب انفسح وانشرح، والمؤمن منشـرح الصـدر في هـذه الـدار على ما ناله من مكروهاتهـا، وإذا قـوي الإيمـان كـان على مكارهها أشرح صدرًا منه على شهواتها ومحابها.
فإذا فارقها كان انفساح روحه، والشرح الحاصل له بفراقها أعظم بكثير، كحـال من خـرج من سـجن ضـيق إلى فضـاء واسع موافق له، فالدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر.
فإذا بعث الله المؤمن يوم القيامة، رأى من انشراح صدره وسعته ما لا نسبة لما قبله إليه، فشرح الصدر كما أنه سبب الهداية، فهو أصل كل نعمة، وأساس كل خير، وقد طلب موسى من ربه أن يشرح له صدره، لما علم أنه لا يتمكن من تبليغ رسالة الله إلا بشرح صدره فـ: (وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28)) [طه: 25ـ28].
أما الأسباب التي تشـرح الصـدور فهي نـور يقذفه الله في القلب، فـــإذا دخله ذلك النـــور اتسع بحسب قـــوة النـــور وضعفه، وإذا فقد ذلك النور أظلم وضاق، وهو هبة من الله تعالى.
والأمر كله لله، والخير كله بيديه، وليس مع العبد من نفسه

شيء، بل الله واهب الأسباب ومسبباتها، يمنحها من يشاء، ويمنعها من يشاء، وهو أعلم حيث يجعل رسالته.
وإذا أراد الله بعبده خيرًا، وفقه لاستفراغ وسعه، وبذل جهده، فيما يحبه الله ويرضاه، وفي الرغبة إليه، وفي الرهبة منه.
وبقدر قيام الرغبة والرهبة في القلب يحصل التوفيق للعبد، والرغبة في الطاعات، والحذر من المعاصي.
والرغبة والرهبة بيد الله لا بيد العبد، وهما مجرد فضل الله ومنته.
يجعلهما الله في المحل الذي يصلح لهما، ويليق بهما، ويحبسهما عما لا يصلح لهما، ولا يليق بهما.
فإن قيل فما ذنب من لا يصلح؟.
قيل: أكثر ذنوبه أنه لا يصلح، لأن صلاحيته بما اختاره لنفسه، وآثره وأحبه من الضلال والغي على بصيرة من أمره.
فآثر هواه على حق ربه ومرضاته، واستحب العمى على الهدى، وكان كفر المنعم عليه بصنوف النعم، وجحد إلهيته، والشرك به، والسعي في مساخطه، أحب إليه من شكره وتوحيده، والسعي في مرضاته، فهذا من عدم صلاحيته لتوفيق خالقه ومالكه.
وأي ذنب وإعراض فوق هذا؟.
فإذا أمسك الحكم العدل توفيقه عمن هذا شأنه، كان قد عدل فيه، وانسدت عليه أبواب الهداية، وطرق الرشاد، فأظلم قلبه، فضاق عن دخول الإسلام والإيمان فيه.
فلو جاءته كل آية لم تزده إلا ضلالاً وكفرًا وعنادًا كما قال سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (96) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آَيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (97)) [يونس: 96، 97].
وقال سبحانه: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآَيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آَذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (57)) [الكهف: 57].

ومن شــرح الله صــدره للإســلام والإيمــان، وأنــار قلبه بالتوحيد، وعرف عظمة ربه، وجميل إحسانه وإنعامه، صــار لقلبه عبودية أخـرى، ومعرفة خاصـة، وعلم أنه عبد من كل وجه، وبكل اعتبار.
وعلم أن الله تعالى رب كل شيء ومليكه، والأمر كله بيده، والحمد كله له، وأزمة الأمور كلها بيده، ومرجعها كلها إليه.
وأعظم أسـباب شـرح الصـدر التوحيـد، وعلى حسب كماله وقوته وزيادته يكون انشراح صدر صاحبه: (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (22)) [الزمر: 22].
فالتوحيد من أعظم أســباب شــرح الصــدر، والشــرك من أعظم أسباب ضيق الصدر.
ومنها نور الإيمان الذي يقذفه الله في قلب العبـد، فيشـرح الصدر ويوسعه.
ومنها العلم، فإنه يشرح الصدر ويوسـعه حـتى يكـون أوسع من الدنيا، والجهل يورثه الضيق والحصــر، فكلما اتسع علم العبد بالله وأسمائه وصـفاته ودينه وشـرعه انشـرح صـدره واتسع.
ومنها الإنابة إلى الله سبحانه، ومحبته بكل القلب، والإقبـال عليه، والتلذذ بعبادته، فلا شيء أشرح لصدر العبد من ذلك.
وكلما كـانت المحبة لله أقـوى وأشـد، كـان الصـدر أفسح وأشرح.
ومن أعظم أسباب ضيق الصدر الإعـراض عن الله تعـالى.. وتعلق القلب بغـيره.. والغفلة عن ذكـره.. ومحبته سـواه.. فـإن من أحب غـير الله عـذب بـه.. وسـجن قلبه في محبة ذلك الغير، فما في الأرض أشقى منه.
ومن أســباب شــرح الصــدر وشــفاء القلب الإحســان إلى الخلق، ونفعهم بما يمكنه من المال والجاه.
فــالكريم المحسن أشــرح النــاس صــدرًا، وأطيبهم نفسًــا، والبخيل أضــيق النــاس صــدرًا، وأعظمهم همًــا، وأنكــدهم عيشًا.
ومن أســباب شــرح الصــدر دوام ذكر الله على كل حــال،

وفي كل موطن.
ومنها الشجاعة، فإن الشجاع أشرح الناس صدرًا، وأوسعهم صدرًا، والجبان أضيق الناس صدرًا لا فرحة له ولا سرور.
وحال العبد في القبر كحال القلب في الصدر نعيمًا وعذابًا، وسجنًا وانطلاقًا.
ومنها ترك فضول النظر والكلام، والسماع والمخالطة، والأكل والنوم، فإن هذه الفضول إذا لم تترك، تستحيل آلامًا وغمومًا وهمومًا في القلب، تحصره وتحبسه ويتعذب بها.
فما أضيق صدر من ضرب في كل آفة من هذه الآفات بسهم؟.
وما أنكد عيشه؟.. وما أسوأ حاله؟.. وما أشد حصر قلبه؟.
وما أنعم عيش من ضرب في كل خصلة من الخصال المحمودة بسهم؟.
وكانت همته دائرة عليها حائمة حولها، فلهذا نصيب وافر من قوله سبحانه: (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (13)) [الانفطار: 13].
ولذلك نصيب وافر من قوله سبحانه: (وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14)) [الانفطار: 14].
وبينهما مراتب متفاوتة لا يحصيها إلا الله تبارك وتعالى.
والنبي صلى الله عليه وسلم أكمل الخلق في كل صفة يحصل بها انشراح الصدر.. وأكمل الخلق متابعة له أكملهم انشراحًا.. وعلى حسب متابعته ينال العبد من انشراح صدره، وقرة عينه ما نال: (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (22)) [الزمر: 22].
اللهم حبب إلينا الإيمان، وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين.

المصادر والمراجع الهامة

1. القرآن الكريم
2. صحيح البخارى
3. الأدب المفرد للبخاري
4. صحيح مسلم
5. سنن أبى داود
6. سنن الترمذى
7. سنن النسائى
8. مصنف ابن أبي شيبة مرقم ومشكل
9. مسند أحمد
10. السنن الكبرى للإمام النسائي الرسالة
11. المستدرك على الصحيحين للحاكم
12. المعجم الكبير للطبراني
13. السنن الكبرى للبيهقي وفي ذيله الجوهر النقي
14. شعب الإيمان للبيهقي
15. سنن الدارمى
16. مسند البزار 1-14
17. مسند الحميدى
18. سنن الدارقطنى
19. صحيح ابن حبان
20. مسند الشاميين للطبراني
21. مجمع الزوائد للهيثمي مدقق
22. موسوعة السنة النبوية
23. عشرة النساء للنسائي مشكل
24. مجموع الفتاوى
25. فتاوى الأزهر
26. فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء
27. مجموع فتاوى ابن تيمية
28. لقاءات الباب المفتوح

29. فتاوى يسألونك
30. فتاوى الإسلام سؤال وجواب
31. فتاوى واستشارات الإسلام اليوم
32. فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة
33. فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء
34. الموسوعة الفقهية1-45 كاملة
35. مجلة مجمع الفقه الإسلامي
36. إحياء علوم الدين
37. إيقاظ الهمم شرح متن الحكم
38. الرسالة القشيرية
39. حلية الأولياء
40. صفة الصفوة
41. قوت القلوب
42. عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين
43. صفة صاحب الذوق السليم ومسلوب الذوق اللئيم
44. أدب الدنيا والدين
45. المدخل
46. الآداب الشرعية
47. الزواجر عن اقتراف الكبائر
48. بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية
49. غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب
50. لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية
51. آفات على الطريق كامل
52. ففروا إلى الله
53. مدارج السالكين
54. التبصرة ـ لابن الجوزى
55. تنبيه الغافلين، الإصدار 2
56. موسوعة خطب المنبر

57. موسوعة فقه القلوب
58. تلبيس إبليس لابن الجوزي
59. كتاب الكليات ـ لأبى البقاء الكفومى
60. الحاوي للفتاوي للسيوطي
61. الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي
62. المكتبة الشاملة 2
63. برنامج قالون
64. كثير من مواقع النت

الفهرس العام

14- فقه حياء القلب 91